مجموعة قصصية

مذكرات رضيعة

سناء شعلان

نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Clud

للمذكرات طعمٌ آخر عندما تُكتبُ بالدم...

(مذكرات حقيقية)

"قصص حقيقة تروي معاناة بعض ضــحايا تفجيــرات عمــان:

الأربعـــــــــــــــــــــــــــــــــــاء٩-١١-٢٠٠٥م

إضاءة

هذه مصافحة أخرى مع الإبداع يبادر إليها نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي ،الذي حرص دوماً على الاحتفاء بالمبدعين من مختلف ربوع وطننا العربي، وفتح مواهبهم وإبداعهم على كلّ ما يتوفّر لديه من فضاءات. فقد احتضن صالون الجسرة الثقافي عدة مواهب في مجالات الشعر والقصة ،بل إنّ جيلاً من الأدباء الشباب قد تخرّجوا من هذا الصالون.

وشجّع النادي الإبداع مسموعاً ومكتوباً، فأسهم في عدة إصدارات، وها هو اليوم يقدّم للقارئ العربي هذه المجموعة القصصية للكاتبة الأردنية سناء كامل شعلان.و هذه المجموعة التي تحمل عنوان "مذكرات رضيعة" تمثّل طور النضج في فن الكتابة القصصية عند هذه الكاتبة الشابة المتألقة.

آملين أن يحقّق هذه الإصدار إضافة جيدة للمكتبة العربية، وراجين كذلك أن يستمر تواصلنا مع كلّ المبدعين في وطننا العربي الكبير.

نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي

الفهرست

١-صانع الأحلام.

٢-عروس عمان.

٣-الطرحة البيضاء.

٤-الوداع الأخير.

٥-فنجان قهوة.

٦-اللعبة الوحيدة.

٧-مذكرات رضيعة.

٨-نور الصباح.

٩-النبوءة.

١٠-ذات الشعر الأسود.

١١-دعوة للكبار فقط.

١٢-مستفى الأرواح.

١٣-نوارس البحر.

١٤-غناء الملائكة.

١٥-دعوة إلى الموت.

١٦-أحلام المساء.

١٧-الهاربة من الموت.

١٨-المقاتل.

١٩-القصيدة.

٢٠-التذكار.

٢١-الطيف.

٢٢-الباحث عن الشمس.

٢٣-وتمضي الأحزان.

صانع الأحلام

"إلى روح مصطفى العقاد الذي رحل، وبقيت أحلامه ترفرف في أرض الأمنيات"

على الرغم من أنّه صانع الأحلام، وأعظم حالمي القرن العشرين إلا أنّه يكره هذا الحلم، الذي يشلّ لحظاته، ويتداعى أمامه ألماً يُضاف إلى الألم الذي يشعر به، ولا يدرك معناه. أو يفهم سببه، حبيبته ريم هي الشيء الجميل في هذا الحلم، يفتح ذراعيه لها، يدعوها بابتسامته العريضة الغارقة في ملامحه الشامية الهادئة إلى أن تودّع لحظات الفراق في حضن حنانه، تكاد تفعل، لكنّها تبتعد، وتبتعد، ويبقى صوته معلّقاً في الفراغ، وهو يصرخ بصوت مكتوم: "ريم ... لا تبتعدي ريم، احذري ... ريم أين أنتِ؟"

ريم والموت الأحمر هما آخر عهده بالدنيا قبل أن ينزلق في دنيا الأحلام، لم يكن قد رآها منذ زمن طويل، هي وحيدته الجميلة بين ثلاثة ذكور،كانت زهرة بيته قبل أن تتزوج زياد الملا، وترحل معه إلى لبنان ، وتستقر معه هناك ، وتهبه طفلين رائعين ، احترق شوقاً لهذا

اللقاء، فهو لقاء بعد فراق طويل، هو جاء من أمريكا مع زوجته، وهي جاءت من لبنان ليلتقيا على وعد الأفراح، وليحضرا معاً زفاف أحد الأصدقاء، أطلّت من البعيد بابتسامتها الطفولية الساحرة، رأى فيها طفلته الصغيرة التي كانت تركض نحوه مشتاقة كلما دخل البيت متأخراً فتمسح بقبلاتها عناء يومه، وما أشدّه من عناء كان!! فتح ذراعيه لها، كانت على بعد خطوتين منه عندما جاء الموت على شكل انفجار مرعب، هزّ المكان، وأطاح بزجاج قاعة الاستقبال في فندق (جراند حياة) عمان حيث ينزل.

في لحظةٍ غدا المكان جزءاً من الجحيم، الجثث في كلّ مكان، والحبيبة ريم غدتْ جثة هامدة لا روح فيها، ومع صوت الجلبة أسلم نفسه لغيبوبة قد تنقذه من آلامه الرهيبة، ونسي كلّ شيء، بل كاد ينسى نفسه إلا منظر ريم ،فقد كان يلّح على عالمه الغارق في الألم، سمع الكثير من الصراخ، وأزعجته الجلبة المستحدثة، وتمنّى من كلّ قلبه أن يصمت الجميع؛ ليستلقي باستسلام في حمى الألم الذي يداهم جسده بلا رحمة.

لكن الجلبة ازدات، والصوت تعالى، كانت أصواتاً تطلب الأكسجين، وتصدر تعليمات سريعة لإنقاذه، أفواه كثيرة لفظت اسمه، فتذّكر أنّه مصطفى العقاد، صانع الأحلام، صانع أجمل حلمين حلم (الرسالة) وحلم (عمر المختار أسد الصحراء) ،وكاد يتذكّر أحلامه الأخرى، لكن الألم يزداد، فيتساءل ما معنى ما يحدث؟

وأين هو؟ وما نوع هذا الألم؟ يحاول أن يفتح عينيه، لكنّه يُخفق في ذلك.

يعرف من الأطباء الذين يحاصرونه باهتمامهم، ويبالغون في تضميده، وزرعه في أجهزة غريبة ،أنّه ضحية من ضحايا الانفجار، يذكرون إنّ حالته خطيرة، فهو مصابٌ بجلطة في القلب، وبإصابات خطيرة في الرئة، وكسور في أضلع الصدر والأطراف، يأخذ نفساً بصعوبة، ومن جديد تمرّ ريم بابتسامتها الجميلة في حلمه، يسلم جسده للأطباء، ويرحل مع أطيافه الوردية المكلّلة بدماء ريم.

-"هو في حالة خطيرة" يقول أحد الأطباء.

-"أتظنه سينجو؟" يسأل ممرض بقلق بادٍ.

-"مسكين لقد ماتت ابنته على الفور" تقول ممرضة بأسىً

يسود صمتُ، فيقدّر أنّه لن ينجو من الموت، يكاد يبتسم هازئاً من الجبن والجبناء، بل ومن الموت، لكن أصابته البالغة تمنعه من ذلك، يشعر ببرد يحاصر جسده شبه العاري المستسلم لمبضع الأطباء، ولعشرات الأجهزة الطبية، ذلك الأكسجين الذي يُعطى له يهبه شعوراً رائعاً، شعوراً بالحياة مثلاً، ليته يستطيع أن يتحرك من مكانه، ليته يمتلك قوة عظيمة تجعله قادراً على اصطياد أولئك المجرمين الذين حوّلوا أرضه إلى جهنم، وقتلوا الأبرياء، يحاول أن يتذكرّ ذنباً واحداً اقترفه يستحق مثل هذا الألم، فلا يفلح في ذلك.

صورة ريم تطغى على كلّ الأحداث والجلبة التي تزحم مكان،

إلا على صوت زوجته الذي يتنزّى عبر باب زجاجي يفصله عن الردهة، فيحمل حزنها الموزّع بين البكاء والخشوع، وهي تقرأ القرآن الكريم طالبةً عون الله له، يردّد في سره كلماتها التي تنزل برداً وسلاماً على كبده، تقرأ قوله تعالى :"لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك" يردّد كلماتها من جديد في سرّه، كلماتها تعيده خمسين عاماً إلى الوراء، يجد نفسه طفلاً صغيراً يلعب في حارات حلب وزقاقها القديمة، والده يقرأ هذه الآية، وهو يردّدها من بعده بعد أن عرف تماماً معناها، فالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قد نفذ إلى قلوب الناس بالحبّ والسلام لا بالموت والعذاب، ولهذا هو يحبّ الإسلام ويحبّ نبي السلام، ولهذا آل على نفسه أن يدافع بالكلمة عن رسالة الإسلام والمسلمين، ويلتقط بكاميرته صور إنسانية الإسلام.

يقف بفقره وأحلامه وموهبته وإيمانه بربه وشعبه أمام والده، ويعلن أنّه سيستقيل من البنك الذي يعمل به، وسيتجه إلى أمريكا لدراسة المسرح، فهو يريد أن يكون مخرجاً عالمياً كبيراً. يسخر الجميع منه، ويرمقون بسخرية جسده العنيد، وملابسه القديمة، لكنّه يصمّم على أنّه قادر على صنع الأحلام، وقادر على تحقيقها، فهو يريد أن يخرج أفلاماً كتلك التي اعتاد أن يشاهدها كلما رافق جاره الذي يعمل موظفاً في سينما الأوبرا، بل إنّه قادر على أن يصنع أفضل منها، ولذلك سيتحدّى الدنيا ،وسيحقق حلمه.

كان والده الحنون آخر عهده بحلب شاباً صغيراً، دسّ في يده على استحياء مئتي دولار، هي كلّ ثروته في الحياة، وأعطاه باليد الأخرى مصحفاً شريفاً؛ ليحفظه من كلّ سوء بعد أن حصّنه بالتربية الدينية العربية الحصينة، ثم دعا له بالتوفيق، وأسلمه لأوّل طريق المجد الذي لم يكن معبداً، بل كان وعراً صعباً لفتىً مسلم فقير لا يملك إلا مئتي دولار، وأحلاماً لا تنضب، وموهبة فذّة مشبعة بفكر قومي عربي أصيل، واسم مصطفى الذي رفض أن يستبدل اسماً أجنبي به؛ لأنّه وسام منحه أياه أبوه، يعزّ عليه أن يتنكّر له.

من جديد يشتدّ ألم مصطفى العقاد، يسمع زوجته الحبيبة تسبُّ الإرهاب والمجرمين الذين يجهلهم، يتمنّى لو أنّه يستطيع أن يطلب منها الاقتراب ليضمها إلى صدره، فتمسح دموعه، لكن قواه أضعف من أن تجعله يستيقظ بكامل حواسه من غيبوبته، الطبيب يقول إنّ حالته مستقرّة، وإنّه سيستيقظ في أيّ لحظة.

لكنّه يشعر بأنّ حالته تسوء، وأنّه ينزلق في غشاوة لا يشعر بأنّه سيستيقظ منها أبداً، في غيبوبته الضبابية يرى أحلام عمره تتراقص أمامه بألوان زاهية، يرى سنيناً من العمل والإرادة تثمر فيلم (الرسالة) وفيلم (عمر المختار أسد الصحراء) ، يرى ملايين من المشاهدين يشاهدون هذين الفلمين، ويغيرون وجهة نظرهم إزاء الدين الإسلامي والمسلمين ، بل يرى الكثير يسلمون بعد أن يشاهدوا مسلسل الرسالة ، يرى نفسه مخرجاً عالمياً مرموقاً له أفلام كثيرة

ناجحة، ويرى السوري القادم من البعيد يغدو أهم مخرجي هوليوود بعد أن أنهى دراسة المسرح في لوس أنجلوس، يتنهدّ بارتياح؛ لأنّه غدا العربي المشهور الذي يحارب الأعداء بالكلمة والصورة، فيحققّ ما لم يُحقّقه الموت.

ولكن بعض أحلامه المؤجّلة لا زالت تلوح في أرض أمنياته، لا زال يحلم بإخراج فلم بعنوان (صبيحة ملكة الأندلس)، وآخر بعنوان (الإمام الحسين)، وثالث بعنوان (وامعتصماه)، ورابع بعنوان (محمد الفاتح)، وخامس بعنوان (كابوتشي). يريد أن يستيقظ من هذه الغيبوبة اللعينة ليعصر الإرهاب بيديه، وليخرج فلم بعنوان (صلاح الدين الأيوبي)، ليصحّح به الكثير من الأخطاء التاريخية، وليؤكدّ أنّ الحروب الصليبية كانت نوعاً من الإرهاب الديني، سوف يجعل كلّ مسيحي ومسلم ويهودي يصفق لصلاح الدين الإنسان قبل أن يصفق لصلاح الدين القائد العسكري الفذّ، لكنّه بحاجة إلى تمويل ضخم قد يصل إلى ثمانين مليون كي يخرج الفيلم على سويّة مرضية، لقد أخذ الموافقة الأولية من الممثل العالمي (شين كونري) للقيام ببطولة هذا الفيلم، لكنّه حتى الآن لم يجد مموّلاً لهذا الفيلم؛ فالأثرياء العرب يريدون أفلاماً عن أنفسهم، أمّا هو فيريد فيلماً يسقط به عصر صلاح الدين على الواقع العربي الحالي.

يسمع صوت هتافاتٍ باسم عمان العرب ، تستيقظ في نفسه الرغبة في الاستيقاظ والانضمام إلى ركب عشّاق عمان الذين

ينّددون بالموت والإرهاب، ولكنّه يعجز عن ذلك، وتبقى عمان الحبيبة التي احتضنته المرة تلو الأخرى، التي كان يحلم بأن يبني فيها مدينة سينمائية تغدو معلماً سياحياً في الوقت نفسه حبيبته الأولى، ألم تكن أوّل عاصمة عربية تعرض فلم الرسالة عام ١٩٧٦ بموافقة خاصة من المغفور له الحسين بن طلال، في حين ما زال الفيلم فناً ممنوعاً بقرار أزهري في كثير من عواصم الدول العربية، لا سيما في مصر وفي حبيبته سوريا، بل إنّه في عمان قد كُرّم على إبداعه الفني، وتقلّد وساماً من القائد الفذّ الذي انتصر بكامل وعيه وثقافته لفن العقاد.

"ريم أحبّك يا ابنتي الغالية، عمان أحبّك يا جميلتي الحزينة" يناجي العقاد نفسه قائلاً، في حين يطغى صوت جهاز القلب على صوته، يزحم الصوت الآلي القلق المكان، يهرع الأطباء إلى غرفته، يشعر العقّاد بغصة تضيق ذرعاً بروحه، يجنح قلبه إلى السكون، بل يقّرر الانحياز إلى الصمت، ويضرب صفحاً عن الصعقات الكهربائية التي يمارسها الأطباء عليه طمعاً في أن ينبض من جديد، لكن قلب العقّاد الذي اتسع لكلّ تاريخ وعروبة أمته يصمّم على الصمت، فيتواطأ جهاز دقات القلب معه، ويصمت، يعلن الأطباء بعجز خبر موته، يسمع صوت انتحاب زوجته، يتمّنى لو أنه يستطيع أن يُسرّي عنها، فهو لا يحّب أن يراها باكية، وهي شريكة درب نضاله، لكن يبدو أنّ أحداً ما عاد يستطع أن يفعل ما يريد.

يستسلم للموت ليأخذ راحة من أحلامه وأمنياته، وليغيب في الظلام، ولينسى الأصوات والروائح، بل لينسى من يكون إلا تلك الرائحة الزكية التي يعرفها جيداً، وهي رائحة الوطن، عند مدينة (نصيب) الحدودية يستلم أهله وأقاربه التابوت الذي سُجّي فيه، في أرضه يرقد رقدة الخلود، يعبق المكان بأريج شهادته، يطالع جراحه التي استلقت في جسده في رمسٍ حزين، تتراءى أحلامه في الظلام، كلّها مضيئة بهيجة، وحلما الحرية والأمن أشدّها بياضاً، وأعظمها ألقاً. يعدّ أحلامه، فيجدها قد ازدادت حلماً، يبتسم بحزن لحلم اسمه: السلام والحبّ. ويستسلم للموت مع أنّه لا يزال يجهل الذنب الذي اقترفه، فاستوجب أن يفتك به وبأحلامه بسببه!؟ وزغاريد النسوة في فيلم (عمر المختار) تزّفه إلى نومه الأبدي.

عروس عمّان

"إلى أشرف ونادية: عروسين سرق الإرهاب سعادتها، وألبسهما السواد في ليلة زفافهما"

قالت بخفرها اللذيذ: "بل أحبّك أكثر".

قال بإصرار: "بل أنا من يحبّك أكثر".

احتجّت كطفلة صغيرة: "ما خطبك يا أشرف؟ ألا تصدق أنّني أحبّك جداً، وأكثر مما تتخّيل".

ابتسم قائلاً وأطياف عشقِ عمره عامان تلوح في حاضر سعادته: "بل أعرف، ومتأكّد من ذلك، لنتفق على أنّ كلّ منّا يحب الآخر أكثر" .قالت بارتياح وهي تتأبّط ذراعيه باسمة: "وأنا موافقة على هذا الاتفاق".

وطفقا يكتبان اسم آخر مدعو إلى حفل زفافهما الذي سيوافق يوم الأربعاء ٢٠٠٥/١١/٩ في فندق (الراديسون ساس) في العاصمة عمان،بعد أن أُجّل الزفاف أكثر من مرة لأسباب شتى ، كانا

حريصين على دعوة كلّ الأصدقاء والأحبّة؛ ليشاركوهم لحظة تتويج حبّهما الذي دام عامين، كانا يريدان أن يقولا لكلّ العالم: "أنا نادية، وأنا أشرف، كلانا عاشق، وها نحن نغدو زوجين".

كلّ أحلامهما باتت حمائم بيضاء ترفرف في دنيا سعادتهما، ساعات ويغدوان زوجين، سيسافران إلى شرم الشيخ ليقضيا هناك شهر العسل، ثم سيسافران إلى الكويت ليعيشا في بيتهما الجميل الذي اختارا سويّة كلّ قطعة من أثاثه، سيرفلان بالسعادة، وسيعيدان في بيتهما الصغير سيرة عائلات محبّة ومتعاضدة عرفاها في أسريتهما.

ثبتّتْ عاملة صالون التجميل الإكليل الأبيض على شعر نادية، فاستلقى بسعادة بيضاء ليهبط إلى الأرض، وليلامس ثوبها الأبيض الذي اختارته بعناية، وبعد بحث طويل، عيناها تملكان سعادة غامرة لا تفلح في أن تخفيها، تتابع جمالها المتشح بالأبيض في المرآة التي تهبها آخر وأطول تأمّل في مظهرها، تستدير كفراشة برية سعيدة لتُلقي بفرحتها في أحضان أمها هالة التي تقرأ القرآن عليها؛ لتحميها من العين، وتلقّبها مزهوة بأجمل عروس في الدنيا.

وجيب قلبها يتعالى، فتشعر بأنّ الدم يتدفّق بسخاء في عروقها، برفقته برودة لذيذة تجتاح جسدها، تتأبّط ذراع أشرف، وتسلمه النفس والعشق، وتغادر برفقته بيت أهلها وسط حشود من الأصدقاء الذين يستقبلونها بالأغاني والموسيقي الصادحة والزهور ، تلقي نظرة عجلى وسعيدة على الرؤوس التي تطلّ باسمةً من بيوت الجيران

الذين تحبّهم جميعاً، وهم يرمقون ثوبها الأبيض، ويدعون لها بالتوفيق، تشدّ على كف أشرف الذي يهبها نظرات مطمئنة تقول لها: "نعم أنا أحبّك، سنمضي أجمل حياة سوياً".

لم تشعر بمثل هذه الفرحة من قبل، كانت زفة طويلة وصاخبة هي زفتها حتى قاعة الفندق، شعرت بأنّ عمّان كلّها تشهد زفافها، وتمنّت لو أنّ الدنيا كلّها تعلم مقدار سعادتها في مثل هذا اليوم، فسعادتها تتسع لكلّ البشر، تمنّت لو أنّ اللحظات تتسارع لتنهي سريعاً التقاط الصور التذكارية في غرفة زفافها في الفندق مع أشرف، لتهبط طوابق عدة بالمصعد، وتبدأ زفة دخولها وأشرف إلى قاعة الزفاف، أرادت أن ترى سعادتهما حبّاً في عيون كلّ المدعوين.

على باب القاعة انتظرتها أمّها الحنون ووالدها الحبيب الذي تحبه حدّ الجنون، حماها وحماتها غمراها بابتسامة خاصة، وتاهت نظراتها في يمٍّ من الابتسامات والأعين المحبّة لها، تعالى صوت الموسيقى والطبول والأغاني الشعبية، وملأ رقص الفرقة المكان بالسعادة، وتعالت الزغاريد، وكادت تدلف القاعة لتمطر الجميع بابتسامة تحية، أرادت أن يجتاح ثوبها الأبيض المكان بسعادة غامرة، وخطتْ خطوة مع أشرف... ثم جاء الموت، جاء انفجاراً رهيباً صمّ أذنيها لثوانٍ خالتها سنوات، ظنّت أنّ انفجاراً حدث في عبوة غاز أو تماس كهربائي قد حدث، لكن سقف الصالة الذي انهار فجأة، وهوى مع زجاج الواجهات جعلها تظنّ أنّ زلزالاً ضرب المكان.

أرادت أن تستنجد بأبيها، لكنّها وجدته يشهق شهقات الموت غارقاً في دمه، أمّها كذلك كانت قرباناً للموت، الذي حلّ في المكان، تعالت الأصوات، وغاب النّور، وحلّ الظلام والخوف والموت، ثوبها الأبيض تلطّخ بدم الأهل والأقارب، انتابتها دهشة، وغشيها ذهول، أرادت أن تصرخ فلم تستطع، أرادت أن تستنجد بأشرف فخانتها الكلمات، وكاد العالم يغيب عن وعيها، وكذلك كان وهي تُدسّ في سيارة أحد الأصدقاء لتُبعد عن مكانٍ خراب يسكنه الموت كان قبل دقائق حفل زفافها حيث الأحبة والأهل.

لم تذق فرحة الزفاف، بل قضت الليل بثوبٍ أسود لبسته عندما يتم جبناء متوحشون بياضه، وذبحوا سعادته، طافتْ على كلّ غرف المستشفى حيث الأهل والأقارب جرحى وموتى، تكوّمت على الأرض تحاول أن تصمّ أذنيها عن صراخ الأطفال والثكلى، لكنّها لم تستطع.

بقرار همجي وقنبلة آثمة أحرق الأوغاد عالمها كلّه، وتركوه يباباً، تمنّت أن تكون أسيرة حلم لتستيقظ منه، فتجد عالمها كما كان، يزخر بالأحبة، وينعم ببركات الوالدين ودعوات الصديقات، لكن أمنياتها ذهبت أدراج الريح، فقد أيقنت أنّها تعيش أبشع حقيقة، وأنّها غدت عروس عمّان الثكلى اليتمة المتشحة بسواد الموت، وبدل أن تذوق طعم الغرام مع أشرف في شرم الشيخ تلقّت التعازي بوالديها وبحماها وبحشد من الأصدقاء والأقارب، وغدا ثوب الزفاف الأبيض رديفاً للموت، وقضت أيامها الأولى في بيت العزاء تتناوب على شتى أنواع

الألم والحسرة، أو في المستشفيات تزور الأقارب والأصدقاء المصابين، وتحمّل جسدها المضنى بالألم فوق ما يطيق من التجلّد، لتقدّم الدعم لكلّ المنكوبين، لتعود في آخر الليل إلى بيت سكنه الموت بعد أن هجره الأحبّة الذين غدوا صوراً في أطر ذهبية تنتشر في أرجاء المكان.

أما بيتها الذي ينتظرها في الكويت فهو من ثكلى المجزرة الشنيعة التي خاضتها، لن تعود إليه، بل ستبيع كلّ أثاثه، وتستقر في عمّان لتكون عوناً لأخوة غدوا يتامى، ولحماة غدت أرملة، ستقف بكلّ شجاعة إلى جانب أشرف، سيتحديان كلّ الألم، وسيثبتان جدارتهما بالحياة، لن يلبسا أبيض الزفاف من جديد كما عُرض عليهما من جهات كثيرة، بل سيتشحان بأحزانهما، ويمضيان في درب الحياة.

تحاول نادية في كلّ ليلة أن تتجاوز بقع الدم المنتشرة عبر ذاكرتها، تحاول أن تنسى أحزان ثوب زفافها الغارق في الموت، تتكومّ بانكسار إلى جانب أشرف، تشدّ على يده، فتحاول جاهدة أن تسأله إن كان يحبّها، لكن الكلمات تعيها صمتاً، تلتصق أكثر بأشرف الذي يضمها إلى حضنه، ويغمرها بعطفه، تبتسم بصعوبة، وتمسح دموعاً تغالبها كثيراً، فتغلبها، تهمس في أذن أشرف بطهارة الأطفال: "لكن لماذا فعل أولئك الأوغاد ما فعلوا؟! لماذا اغتالوا فرحتنا؟".

يقطّب أشرف حاجبيه وذكرى الليلة الرهيبة تمرّ بتثاقل في ذاكرته ،ويقول بحرقة دامية: "لأنّهم ليسوا بشر".

الطّرحة البيضاء

"إلى صديقات جمعهن الودّ، وفرقهن الإرهاب والموت، إلى نادية وفاتن وبتول وسوسن وربى اللواتي حطّم الموت سوار صداقتهن"

الطرحة البيضاء وثوب الزفاف والحبّ الأبدي الذي يتّوجه الزواج كان من أجمل أحلام صداقتهن التي جمعت بينهنّ في عمل واحد منذ سنتين في مؤسسة (موبايلكم) للاتصالات الخلوية.

كنّ فتيات ست بأعمار الزهور، وبأمنيات السعادة والحبّ، تابعن باهتمام وشغف قصة حبّ نادية وأشرف طوال سنتين، وحفظن أحداثها عن ظهر قلب، وانتظرن جميعاً أن يمتدّ الحبّ ثوباً أبيض ليجمعهما زوجين، وجاءت اللحظة بعد انتظار طويل، وأزف موعد زواج نادية وأشرف اللذين توقعا أن يكونا أوّل زوج في مجموعتهن، إلا أنّ ربى فاجأت الجميع بزواج سريع منذ أشهر قليلة، وكانت بذلك أوّل صديقة تدخل القفص الذهبي على حدّ تعبيرهن.

أنفقت الصديقات الساعات في التحضير للزفاف، وفي شراء هدية زفاف لنادية، ثم تشاورن طويلاً في أثواب الحفلة وفي تسريحات

الشعر، وقررن ماذا يلبسن بعد عناء ومشقة، فقد أردن أن يكنّ بكامل أهبة السعادة والابتهاج في زفاف نادية التي حجزت لهن طاولة خاصة بالقرب من منصة الزفاف، ليكنّ قريبات منها في لحظة سعادتها كما كنّ قريبات منها طوال سنتين.

جلسن جميعاً على كراسيهن إلى الطاولة المحجوزة لهن، أحصين بعضهن، فألفين ربى وزوجها لم يأتيا بعد، انشغلت الصديقات بالاتصال بربى لاستعجالها، وتذكّرت فاتن أنّ عليها أن تتصل بوالدتها كي تطمئنها على وصولها إلى قاعة الزفاف، فأمّها من نوع الأمهات القلقات جداً على بناتهنّ، وهي من النوع الذي يتعاطف جداً مع مخاوف أمه، ولا يبرم بعهد قطعته لها، ولو كان عهداً بالاتصال بها لتطمئنها على وصولها إلى مكان ما.

ربى قالت إنّها الآن مع زوجها تخطو أول الخطوات على السلّم الخارجي لقاعة الزفاف، فطارتْ ناديا لاستقبالها ولمشاركتها لحظة دخول نادية وأشرف في زفّة العرس، في حين انشغلت الصديقات بمتابعة الأحداث عبر تلفاز ينقل بالصورة والصورة لحظات جميلة لن تنسى أبداً، إلا أنّ فاتن ظلت مشغولة في محاولة الاتصال مع والدتها، وأملّت النفس بأن تجري المكالمة سريعاً ، ثم تفرغ لمتابعة اللحظات السعيدة عبر التلفاز ، لكن الموت لم يمهلها ، فقد كانت هي والصديقات في أقرب نقطة من رجلٍ مأفون دخل إلى القاعة ، وفجّر نفسه ومن حوله ، في لحظات أسرع من أن تحصى وأبشع من أن

تُوصف انفجر المكان، وتهشّم الزجاج، وتبّدل الفرح موتاً، وغابت الرؤية، واستسلمت الصديقات للموت غير معنيات بمتابعة اللحظة السعيدة التي غدتْ موتاً أسود، في حين بقي جهاز هاتف خلوي الذي كان في يد فاتن لحظة الانفجار يرّن، ويظهر رقم بيتها دون مجيب.

شعرت أم فاتن بحرقة غريبة في صدرها في ساعة الانفجار، وظهرت فاتن في مخيلتها حزينة كسيفة تطلب مساعدتها بصوت واهٍ وبنبرةٍ كسيرة، اتصلت بها الأم (هناء الحلبي) مراراً دون إجابة، أرادت أن تلبي دعوتها لكن دون مجيب، شعرت بأنّ وخزة في قلبها تقول لها إنّها لن ترى فاتن بعد اليوم بثوب زفاف وبطرحة بيضاء كما تمنّت دوماً، وها هي قد أخلفت وعدها لأول مرة، ولم تتصل بها لتطمئنها على وصولها إلى قاعة الزفاف، وما كانت لتفعل ذلك أبداً، وهي على ما يرام.

فايزة وفتون شقيقتا فاتن كانتا أول من سمع عن الانفجارات من خارج الأردن من العائلة، أردن الاطمئنان على العائلة، اتصلن طويلاً بفاتن دون مجيب، بعثن إليها رسائل إلكترونية دون رّد، فاتصلن بالبيت ليعرفن أخبار الأهل الذين هبّوا جميعاً ليبحثوا عن فاتن بعد أن سمعت بنات العم اللواتي هنّ بمثابة أخوات لفاتن، ويقطُنّ في نفس العمارة أنّ تفجيراً رهيباً وقع في حفل زفاف نادية صديقة فاتن.

بحث الأخوة والأعمام طويلاً عن فاتن بين جثث القتلى، وأسرّة

المرضى، وحطام المباني، لكنّهم لم يجدوها، تمنّى الأخوة لو أنهّم منعوا فاتن من حضور هذا الحفل بالذات، وشعروا كم هم حاجة في هذه اللحظات الرهيبة إلى وجود أبيهم الذي يعمل في الخارج منذ سنتين ليؤّمن لهم الحياة الكريمة، والمعيشة الرغدة. ليته أصرّ على فاتن، وغيّر رفضها قبولاً، وأقنعها بالهجرة معه بعد أن أنهى معاملة هجرتها، ليتهم أحاطوها بعناية أكبر من تلك التي أحاطوها بها، لعلّهم كانوا عندها سيحمونها من إرهابي قرّر في لحظة جنون أن يعدم سعادتهم، ويغتال فرحة أمهم بفاتن.

بعناية راقبت هناء الحلبي الشارع عبر النافذة، انتظرت بفارغ الصبر أن يعود الأخوة والأعمام بفاتن سليمة معافة لتبكي خوفها في صدر أمها كعادتها، لكنّها لم تتوقّع أبداً أن تأتي محمولة على الأعناق بعد أن وُجدت ميتة في مشرحة مستشفى الملكة علياء العسكري، كانت مكفّنة بالأبيض، لكن ليس بياض الزفاف والسعادة بل بياض الموت المتشح بالدماء والألم.

ضمّتها الأم إلى صدرها قبل أن تهبها للقبر بدل أن توصلها إلى عش الزوجية، فقد أيقنت أنّ الإرهاب حرم فاتن من أن تلبس طرحة الزفاف، بل حرمها من حق الحياة.

في مكان قريب كانت لانا صديقة فاتن تُودع القبر كذلك، وتستقبل تراب النسيان، فقد ماتت هي الأخرى، ولم تستطيع أن تطمئن على باقي الصديقات ، ولم تعرف أن نادية وربى قد نجتا من

الموت؛ لأنّهما كانتا خارج القاعة في حين أن سوسن وبتول كانتا تعانيان من كسور وجراح خطيرة، وتستسلمان للألم على أسرة الشفاء، وأنهّن يسألن بلا انقطاع عن مصير فاتن ولانا، فلا تكون الإجابة إلا آمالٍ كاذبة، وحقائق مدعاة، كي لا تعرفا الحقيقة، فتسوء حالتهما النفسية فضلاً عن الجسدية.

نادية الوحيدة التي كانت تعرف مصير الصديقات جميعاً، وتعاني من سكرات موت التي تلفح حلقومها المزكوم بشهقات مكبوتة، وهي تخبر بتول إنّ فاتن ولانا على ما يرام، في حين تعرف تماماً أنّ لا أحد على ما يرام، لا سيما هي التي تدخل كلّ يوم إلى مكتبها في العمل لتجده خالياً من الصديقات اللواتي توزّعن على الموت أو أسّرة الشفاء، في حين لم تبقَ إلا الذكريات وصورٌ في أطر ملّونة تذكّرها بأجمل اللحظات التي قضتها مع الصديقات اللواتي لن يعدن حتى ولو أشعلت لأرواحهن آلاف الشمعات هي وموظفو الشركة على البوابة الرئيسية، تتكوّم بانكسار إلى جانب أحد الشمعات التي تكاد تذوي، تمسح دمعةً فارةً، دون إذن من عينيها، وتتنهّد بانكسار، وتمسح من ذاكرة جهازها الخلوي رقمي لانا وفاتن. وتنطلق مسرعة كي لا يفوتها موعد زيارة سوسن وبتول، لا تنظر إلى الخلف،ولا تلوي على شيء لا سيما على أحزانها وانكسارها.

الوداع الأخير

"إلى خالد الأخرس الذي أهدى ابنه أشرف في ليلة زفافه رعاية أم أرملةٍ وأخوةٍ أيتام"

للمرة العشرين قرأ دعوة الزفاف على مسامع زوجته، كانت الكلمات المكتوبة عليه محفورةً على شغاف قلبه بحروف من أمل، بطريقة إذاعية فخورة قال: "يتشرّف كلٌّ من خالد الأخرس وأنيس العلمي بدعوتكم لحضور حفل زفاف ابنيهما: أشرف ونادية، وذلك يوم الأربعاء الموافق ٢٠٠٥/٩/١١ في فندق (الراديسون ساس) قاعة فيلادلفيا، الساعة التاسعة مساءً، ودامت الأفراح حليفة دياركم العامرة".

-"يا رجل والله أُصبتُ بالصداع لكثرة ما قرأت بطاقة الدعوة على مسامعنا" قالت الزوجة أم أشرف وسعادة لذيذة تداعب عتابها الودود.

-"أكاد أطير فرحاً كلما تذكرت أنّ ابني البكر سيتزوج أخيراً، أتصدقين أنّ زفافه سيكون غداً". أجاب خالد بسعادة طفولية.

- "أصدق والله، كما أخشى أن تقتلك الفرحة قبل أن تحضر هذا الزفاف".؟

- "بل أرجو الله أن يطيل في عمري حتى أزفّ أشرف لعروسه، وآراهما على منصّة الزفاف".

- "إن شاء الله سيطول عمرك حتى تزّوج أولادهم بل وأحفادهم".

- "وأنا يا جماعة؟ أنسيتم أنّ لكم ابناً آخر اسمه بشّار عليكم أن تدعوا الله أن يطيل في عمريكما حتى تحضرا زفافه" قال الابن بشّار بنبرة لا يخفى الحبور والمزاح فيها.

- "هذا يوم المنى عندما أزفّك يا ولدي إلى عروسك" قال الأب بنبرة دافئة تناجي إيماءات الأم بالدعاء والرجاء لله بتحقيق أمنيات الأب، الذي لا تزال تتذكر تماماً دموع الفراق في عينيه عندما أصرّ قبل أيام على توديع كلّ الأصدقاء والمعارف والجيران في الكويت، قبل أن يسافر إلى الأردن لحضور زفاف ابنه بشّار الذي أُوجّل أكثر من مرة حتى يعود كلّ الأقارب من السفر، ويتسنّى لهمأن يحضروا الزفاف، يومها قال بلهجة حزينة يعلوها الإيمان بقضاء الله وقدره: "لا أحد يدري إن كنّا سنرى بعضنا مرة أخرى أم لا".

وبنفس الإيمان بقضاء الله وقدره والاستسلام لحكمه حضر الأب عرس ابنه أشرف بعد أن صلّى صلاة المغرب، وتضرع لله كي يرزق ابنه الخلف الصالح، ويهيء له الحياة الحلال السعيدة، وكان في

مقدمة المستقبلين إلى جانب والد عروس ابنه، كاد يطير فرحاً واعتزازاً بسنوات الغربة والحرمان والشقاء التي تمخضّت عن شاب وسيم خلوق، ها هو يزفّه إلى عروسه في هذا اليوم ذي الطقس المنعش والنسمات العليلة، وإلى جانب ابنه الآخر بشّار الذي يختال بشباب غضّ يحلو ببذلة رسمية جميلة. تذكّر نفسه وهو شابٌ صغير، يحزم أمتعته القليلة، ويطير إلى الكويت بعد عام ١٩٦٧، بحثاً عن حياة جديدة بعيداً عن موطن رأسه في قرية سيلة الظهر في جنين المحتلة، يحمل في يدٍ شهادة الهندسة، ويقبض بأخرى على نقودٍ قليلها صرّها بحرص.

صوت الأغاني الشعبية والطبل علا على كلّ الأصوات، ومنعه حتى من أن يسمع صوته يردّد الأغاني بحبور مع فرقة الزفة، لكنّه لم يعلُ على صوت الانفجار الذي دبّ رعباً في المكان، فخلع السقف، وحطّم المرايا والزجاج، وغاص قطعاً وشظايا في جسده الذي ذهب أشلاء ومزقاً في المكان، جمعها المسعفون بعناء، ودسّوها في كيس بلاستيكي، كتبوا عليه: "الضحية: خالد الأخرس".

آذان الفجر صبيحة يوم الزفاف الأسود زار الدنيا دون أن يشهده خالد الأخرس، فيكبّر مراراً، ويسبح باسم الله، ويتوّضأ لأداء صلاة الفجر، فقد رحل وترك أيتاماً وأرملة بكت بمرارة ،وهي تقول: "كان زوجي رجلاً متديناً، يحبّ الإسلام والمسلمين، وما ظنّ يوماً أنه سيقتل باسم الإسلام، وعلى أيدي دعاة يدّعون الانتصار للإسلام.

أيّ إسلام هذا الذي يبيح سفك دماء الأبرياء!!! واغتيال أحلامهم وأفراحهم؟!!"

مات خالد وترك هدية زواج صعبة لأشرف ونادية، إذ ترك لهما عبء رعاية أم أرملة، وأشقاء أيتام، وغاب في أرض الموت.

"فنجان القهوة"

"إلى أمّ حرمها الموت من أن تزفّ ابنتها البكر إلى بيت زوجها مثل كلّ الأمهات: إلى هالة فاروقة"

اعتادت هالة في كلّ صباح منذ سنوات طويلة تعادل سنوات زواجها من أنيس العلمي على أن تشرب قهوة الصباح مع شريك عمرها، ورفيق درب حياتها، يجلسان إلى شرفتهما الصغيرة، يحتسيان القهوة بشغفٍ وتلذّذ، يتجاذبان أطراف الحديث على عجل، يراجعان أهم فعاليات وبرامج اليوم، ثم يتجه كلّ منها إلى عمله على أمل اللقاء في المساء مع الأبناء.

لم يقطعا عادتهما طوال سنوات، ثم غدت هذه العادة طقساً سعيداً له فعالياته وجمالياته الخاصة منذ أن غدتْ فرصة لحديث طويل بعد فطور الصباح ، ومغادرة الأبناء كلٌّ إلى مدرسته أو جامعته أو إلى مكان عمله ، فمنذ أن تقاعد أنيس وهالة طفقا يستمتعان بكلّ لحظة من لحظات حياتها ، وأعلنا صراحة عن أنّهما سيقومان بجولات كثيرة في دول حلما بزيارتها منذ زمن ، ووفق عبارة أنيس سيعيشان

حياة جديدة فور زواج بكرهما الحبيبة نادية.

اعتادا على أن يطرحا كلّ قضاياهما للنقاش مع فنجان قهوة الصباح، لكن منذ أسبوعين احتلّ موضوع زواج نادية وتحضيرات الزفاف، وأسماء المدعوين، واختيار هدية العروسين صدارة مواضيع الحديث، إن لم يحتكرها تماماً. وكان هذا يسعد نادية التي غدت شريكاً جديداً في فنجان قهوة الصباح منذ أيامٍ بعد أن أخذت إجازةمن العمل بسبب الزفاف، وإن كانت مشغولة الذهن بتلك النواقص التي تظهر على غفلة كلما ظنّت أنها قد انتهت من آخر التجهيزات.

لم تفارق هالة ابتسامة أمومة هادئة، وإن عجزت عن أن تخفي دمعة حزن تترقرق في عينيها كلما تذكّرت أن موعد انتقال حبيبتها نادية قد أزف، فهي لا تكاد تصدّق أنّ صغيرتها قد غدت امرأة جميلة ستغدو بعد أيام زوجة، وليتها تغدو في أقرب وقت أماً تحمل بين ذراعيها أوّل حفيدٍ لها ولأنيس.

"سيكون حفيدي المدلّل" تحدّث هالة نفسها قائلة، وتبتسم لصورة حفيدها المرجو التي تخطر على بالها.

كانت هالة أول حضن يحوي نادية وهي ترتدي ثوبها الأبيض، أمطرتها بالدعوات، وأوصلتها إلى سيارة أبيها أنيس الذي طبع قبلة على جبين ابنته، وأقلّها بسيارته إلى بيت الجدة أم أنيس ؛ لتهنأ برؤية حفيدتها عروساً، إذ لن تستطيع أن تشارك الجميع فرحتهم بسبب كسر في حوضها منعها من الحركة ، وألزمها الفراش . فرحت الجدة

بحفيدتها الصغيرة التي كبرت في ليلة وضحاها، وغدت عروساً، وكادت تغصّ بدمعاتٍ غالبتها بقوة وأنيس ينحني على يديها المرتعشتين يقبلهما طالباً الرضى. هالة وحدها من فهمت معنى تلك الدمعات، إذ إنّها أم، وتعرف معنى دموع الأم في ليلة فرح ابنٍ أو حفيد، لا سيما أنّها تغالب بصعوبة عبرات تحمل معنى عبرات الجدة أم أنيس.

ابتسامة هالة كانت المستضيف الأول للضيوف، "كانت نادية كبيرة" كما قال لها الكثيرون معجبون بجمالها وبثوبها وبتصفيف شعرها. لكن كلمات إعجاب أنيس كانت الأجمل، والأبلغ وقعاً في نفسها، كانت تصدفُ عيناها عينيه لحظة بعد أخرى، فتتبسم له ابتسامة ذات معنىً يفهمه، وتعده بفنجان قهوة سعيد غداً لا سيما أنهما لم يحتسيا القهوة هذا الصباح معاً لأول مرة بسبب انشغالهما بآخر تجهيزات الزفاف، نظراتها أمّلته بأجمل فنجان قهوة.

كانت إلى جانب أنيس تصّفق وتتمايل على أنغام الموسيقى مردّدة الأغاني الشعبية التي يصدح بها أفراد فرقة الزّفة، وملء عينيها حبيبتها نادية التي أندت المكان سعادة وحبوراً، كانت تتملّى وجهها وهي تتخيل سعادتها غداً وهي تقدّم لها مع أنيس هدية الزواج، "آه كم ستكون لحظات سعيدة"!! قالت هالة مؤمّلةً نفسها بسعادة منتظرة قبل أن تميد الأرض بها، وينفجر المكان على يديّ إرهابي غاشم ، وتنغرس شظية حديدية في ظهرها، فتقطع نخاعها الشوكي، وترديها

جريحة غائبة عن الوعي.

ليالٍ ثمانٍ قضتها هالة في نفق طويل يصل الموت بالحياة، كانت متأرجحة حائرة بين موت أسود أو حياة تقضيها مشلولة الأطراف بعد الإصابة البالغة التي أصابت نخاعها الشوكي، حيرتها منعتها من أن تسمع نادية ترجوها أن تصمد، وتتشبث بالحياة لأجلها ولأجل ابنها فارس كي تتلقى التهنيئات في عرسه المتمنّى، بل منعتها من أن تحسّ بيد الملكة رانيا المعظّمة تمتدّ حانية لتمسّد على جبينها، وتهديها دمعة حرى، فهي أم تعرف معنى أن تُحرم أم من حياة وهبتها لأبنائها، تعرف معنى أن لا تحضر أم زفاف ابنتها، تعرف معنى دمعة حب تترقرق في عينّي أم كلما شاهدت فرحاً في عيني ابن أو ابنة.

وغادرت هالة المستشفى لترقد في رمسٍ باردٍ حزين في مقبرة وادي السير دون أن تقول وداعاً لنادية التي انتظرت أن تضمّها أمها صباح زواجها مثلما تفعل كلّ الأمهات، ودون أن تعدّ فنجان قهوة الصباح لأنيس الذي رحل هو الآخر دون أن يشرب فنجان القهوة، ودون أن يعلم أنّه قد شرب على عجل فنجان القهوة الأخير مع هالة قبيل حفل زفاف نادية بيوم واحد.

وخلا مطبخ هالة من دلائل الحياة إلا من فنجانيّ قهوة على عجلٍ في انتظار رفيقا درب رحلا دون عودة.

اللعبة الوحيدة

"إلى روح لينا ذنيبات التي تركت لعبتها بارني وحيدة دون أنيس"

اعتادت أم محمد منذ سنوات تسع، هي بمقدار عمر حبيبتها لينا، على أن تعرّج كلّ مساء قبل النوم على غرفة لينا، تفتح الباب بهدوء، وتتلصّص عبر النور الخافت على الغرفة، فتجد لينا تغطّ في نوم عميق وهي تحضن لعبتها المفضّلة بارني، تطبع قبلة حرى على جبين لينا، وتغلق الباب لتهنأ بنومها وبأمنها. لكنّها منذ أيامٍ سوداء باتت تُلفي نفسها في كلّ ليلة أمام بكائية حزينة اسمها لعبة لينا، كلّ ليلة تمرّ رغم أنفها على غرفة لينا حيث بات المكان يتيماً دونها، تلقي نظرة على اللعبة بارني التي باتت وحيدة دون رفيقتها لينا، تطبع قبلة حزينة على جبين بارني، تضمّها إلى صدرها، وتغرق في بكاء حزين قد يطول إلى منتصف الليل.

منذ رحيل لينا وهي تعيش وحدةً عظيمة وحزناً لا ينقطع، لم تكن ابنتها الوحيدة التي انتظرتها تسع سنوات، ولم تكن بسمتها

الوحيدة في الدنيا، لم تكن واسط العقد بين شقيقين، ولم تكن عالماً من الحب والأمومة فجرّتهما في داخلها وحسب، ولكنّها كانت صديقة صغيرة تمسح دمعتها، وتؤنس وحدتها منذ أن عادت الأسرة إلى الأردن، وبقي الزوج في الخارج، ينتظم في عمله، ويرسل لأسرته من المال ما يكفل لها الحياة الكريمة الطيبة.

لقد ضحّت الأسرة بكلّ الحياة التي أسّستها في الخارج من أجل لينا التي أراد لها الوالدان أن تعيش في بيئة عربية، وأن تتربّى على قيم مجتمعها وعلى طقوسه وأعرافه، ولذلك كان انقسام الأسرة، وعودة الأم والأبناء إلى الأردن دون الأب.

أحبّت أم محمد أبناءها جميعاً، لكن لينا كانت فرحة أمومتها، التقطت لها صوراً تسجل كلّ أفراح حياتها، حتى أنها لم تنسَ أن تلتقط لها صوراً تحمل ابتسامة عريضة لها، وهي تشارك الجيران لساعات ثلاث في إعداد كعك العيد الذي لم تكن تعلم أنّه سيكون العيد الأخير الذي ستشهده طفولتها المفعمة بالسعادة والفرح وحبّ الحياة، والمتمثلة لأجمل جزئياتها.

كانت تحلم باللحظة التي ستكبر فيها لينا، وتكون رفيقتها في كلّ الأماكن، لكنّها لم تستطع أن تنتظر تلك اللحظة التي بدت بعيدة ، لذا فقد اعتادت على أن تصحبها من وقتٍ إلى آخر إلى الحفلات ، لا سيما حفلات الزواج ، تمشّط لها شعرها الأسود الناعم القصير ، وتلبسها أبهج أثواب الطفولة، وتصحبها أنّى كان الفرح . كانت تظنّ

أنّ لينا على موعد مع الفرح يوم الأربعاء، ولم تكن تعلم أنّها على موعد مع الموت .

كانت تلبس ثوباً زاهياً، وتنتقل كفراشة بين المدعوين في قاعة الزفاف، على الرغم من محاولة أمها بأن تلزمها بالجلوس في مكان واحد، كانت تخطف أبصار الحضور بضحكاتها وسعادتها عندما خطف ضوء مفاجئ الأبصار، وهزّ انفجار أركان المكان، وبدّل النور ظلاماً، وطغى بسواده على لون ثوب لينا الزاهي، وأسقطها أرضاً تتخبط في دمائها، وتنزف من شتى أنحاء جسدها، غرق ثوبها في دم أحمر حار، وانزلقت في سكون شاحب علا وجهها، وأجبر حركتها على الاستكانة، وألزمها الصمت.

قليلة هي الإسعافات التي بذلها الأطباء لمساعدتها؛ لأنّ روحها سرعان ما فاضت، وقطعت بقضاء الله كلّ محاولة لإنقاذها.

لم تكن تعلم أم محمد أنّ المرء قد يموت بموت حبيب يستلقي بلا حراك في حضنه، تمنّت لو أنّ روحها تُوهب لحبيبتها التي سرق إرهابي غادر روحها، واغتال فرحتها، ويتّم لعبتها بارني.

حضنتها طويلاً حتى تيبّست أطرافها، وعلتها صفرة الموت، عندها اضطررت إلى أن تستسلم للأطباء، وتسلمهم جسدها النحيل المسلوب الحياة، انتزعوا لينا من بين يديها، وأعطوها ثيابها الملطخة بالدم الباقي الوحيد من تلك الليلة المشؤومة.

عادت أم محمد إلى بيتها تحمل ثياباً ملطخة بالدم دون لينا التي

اعتادت على أن تردّد على أذنّي عمتها ميسون التي تعّدها ابنة لها، إذ لم ترزق بأطفال، كلّ ما رأت وسمعت، لكنّ العمة ميسون تلقّت هذه المرة ثياب لينا، فضّمتها إلى صدرها، فتلطخت ملابسها بالدماء، شمّتها مراراً، فميزت فيها رائحة لينا التي خالطتها رائحة الموت والدمار، أشفقت على لينا الرقيقة أنّى لها أن تواجه الموت المخيف!! وأن تصارع المتفجرات والإرهاب، فيصرعانها؟!

تتكّوم العمة إلى جانب الأم الثكلى، تنخرطان في بكائية حزينة، ملابس لينا الملطخة بالدم هي اللوحة الأبرز فيها بعد أن قامت أم محمد بالتبرع بكلّ ملابس وألعاب لينا إلى ميتم الأطفال، لتنعم بها طفلة بنفس عمر لينا، لم تواجه الإرهاب وجهاً لوجه، فتقع ضحيته، أمّا بارني فقد بقي بعد رحيل كلّ الأشياء، إذ إنّه كان اللعبة المفضلة عند لينا، وما كنت لتنام دونه حتى لو اضطرت على أن تُجبر أباها على أن يعود أدراجه من عمان إلى مطعم سياحي في جرش، ليحضر بارني الذي نسيته في المكان كما حدث في مرة سابقة.

رحلت لينا مجبرة بعد أن ذُبحت طفولتها مع أنّها لم تكن تحمل أيّ فكر سياسي أو ديني يعارض أيّ فكر، أو حتى يساند أيّ فكر، لتقتل دونه، لكنّها على الرغم من ذلك ذُبحت دون رحمة أو إشفاقاً، وتركتْ ثوباً دامياً تصمّم أمها وعمتها على عدم غسله ليبقى شاهداً على انتقام بشع من أطفال أبرياء كانت لينا في طليعتهم.

"مذكرات رضيعة"

"إلى تولين التي حرمها الإرهاب من حنان أمها"

"دعوني أعترف لكم بأنّي لا أفهمُ جُلّ ما يحدث الآن، لكنّني أعرف شيئاً واحد، وهو أنّي خائفة للغاية ووحيدة جداً، ولا أفهم لماذا تركتني ماما وحيدة في هذا المكان.

كما أنّني جائعة ، أريد ولو قطرات من حليب ماما ، لا أريد أيّاً من حليب تلك النسوة اللواتي يحاولن إرضاعي وهنّ باكيات، لماذا يبكين يا ترى ؟ لعلّهنّ جائعات مثلي!! لكن أليس لهنّ أمهات يرضعنّهن ؟ لعلّ أمهاتهن قد اختفين فجأة مثلما فعلت ماما . ليتني أستطيع الكلام إذن لسألت بابا سامر عن سبب اختفاء ماما، كم أشفقُ عليه كلّما ضمّني إلى صدره باكياً !! لعلّ ماما خاصمته ، ولهذا السبب هو حزين ، لكن ماما وبابا متحابان ، فأنّى لهما أن يتخاصما ؟! المهم أنّني جائعة ، ولا أطيق رائحة المكان، ورسغي يؤلمني للغاية منذ أن سقطت من حضن ماما بعد أن أرضعتني آخر

مرة لاصطدم بالأرض في حفل زفاف عمو أشرف وعروسه الجميلة ذات الثوب الأبيض الطويل، كان الحفل جميلاً للغاية، الحقيقة أنّ ماما كانت أجمل الموجودين، عيناها الجميلتان كانتا تشّعان فرحاً وألقاً، وأنا كنت أتأملهما طويلاً قبل أن أنهل من حليبها الدافئ الذي يكاد يختلط برائحة عطرها الذي أميّزه من بين ألف رائحة، كنت أتابع مع ماما زفة العروسين عندما بدأت مفرقعات مخيفة بالانفجار، أنا أكره المفرقعات، لقد تسبّبت بتحطيم كلّ الأشياء الجميلة في المكان، وتسبّبت في وقوعي على الأرض، المفرقعات أخافت ماما، وأخافت الجميع، فناموا كلّهم كي لا يسمعوا صوتها، وتركوننني مستلقية على الأرض أبكي وحيدة، ثم جاء رجل طيب وحملني، ثم حملتني عروس أخرى تلبس الأبيض، ووضعتني في هذا السرير، ثم لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك؛لأنّني نمت، ثم استيقظت مرات كثيرة، ثم نمت، ولم تأتِ ماما، وأنا الآن جائعة، وأريد ماما، وأريد أخوتي، هل تسمعني يا بابا؟

أنا جائعة، وإذا لم تأتِ ماما حالاً سأشرع أبكي. يا إلهي أنقذني مما أنا فيه. لا تقل لي يا بابا أنّك ستشرع من جديد في البكاء، كلما اقتربت نحوي، وضممتني إليك ، شرعت في البكاء ، هذا لا يجوز، أنت يا بابا كبير ، وأنا تولين الصغيرة التي عمرها ثلاثة أشهر ، وأنا الجائعة ، وأنا المريضة ، إذن يجب أن أبكي

أنا، وتصمتَ أنت".

من جديد عادت تولين إلى نوبات البكاء الحادة التي تنتابها بين الفنية والأخرى، كانت في حضن والدها بعد أن رفضت بإصرار أن ترضع من كلّ المرضعات اللواتي تبرّعن حباً وكرامة بإرضاعها بعد أن شاهدن صورها في التلفاز تبكي الطعام بعد مقتل أمها الشابة وجدها وجدتها لأمها في حوادث تفجير عمان المريعة، أخذت الأمهات الرأفة بها كلّ مأخذ، وتوافدن على المستشفى لإرضاعها، لكنّها بقيت مصمّمة على رفض المرضعات، وكانت حالتها في سوء؛ لأنّها رضيعة صغيرة أضعف من أن تصمد أمام الجوع.

قال الأب محدثاً فداء الصمادي التي جاءت متبّرعة بإرضاع تولين "إنْ بقيت دون طعام ستموت دون شك، وستلحق بأمها الحبيبة".

"لا سمح الله، صدّقني إنّني أشعر بأنّها ستقبل بحليبي، فمنذ أن رأيت صورتها في التلفاز وحليبي قد ازداد تدفّقاً، عندها أدركت أنّ ما يحدث إشارة إلى أنّ الله قد جعل من حليبي نصيباً لتولين، لتكون شقيقة لرضيعي، ولابنتي الصغيرة". قالت فداء بدموع أم حنون.

"أرجو أن تقبل بحليبك، فأنا لا أقوى على تحمّل صدمة موت تولين، أنا في حاجة إليها، فهي أجمل هدية من زوجتي الحبيبة، يا إلهي كم تشبه زوجتي!! كنت أنوي أن أذهب أنا وزوجتي لشراء عربة خاصة لتولين هذا الأسبوع ، لكن العمل كان سبباً في تأجيل

مخططنا الجميل، حتى هذا العرس المنكوب لم أستطع حضوره بسبب ظروف عملي، وقررت أنا وزوجتي أن تحضره هي مع عائلتها ومع تولين، ليتني كنت معهم، ليتني مت ولم أبقَ وحيداً مع هذه المسكينة الصغيرة" قال سامر وهو يشهق بالبكاء.

قالت فداء وهي تمسح دموعها على عجل، وتمدّ يديها إلى تولين لتحملها، ولتضمها إلى صدرها متأثرة ببكاء الطفلة وبجراحها: "بل عليك أن تتماسك لأجل تولين، فأنتَ كلّ ما بقي لها من الدنيا".

"آه يا تولين!! أنت لا تعرفين يا حبيبتي أنّك غدوت بدون أم، وبأبٍ حطّمه الألم" قال الأب بنبرة يتيم.

"إلى أين تأخذينني يا هذه؟! بابا سامر أنقذني، إلى أين تأخذني هذه المرأة؟ من تراها تكون؟ بابا أنقذني. رائحتها تشبه رائحة ماما، في عينيها عطفاً يشبه العطف الذي في عيني ماما، لكنني لا أريد أحداً، أريد ماما، لا أحد غير ماما" صرخت تولين بصوت مكتوم.

تمسّدُ فداء على جبين تولين، وتدسُّ ثديها في فم تولين التي تقبل به دون تردّد، وتبدأ بالرضاعة بنهمٍ وبجوعٍ، وحتى دون أخذ نفس، كأنّها تخشى من أن تُحرم من الرضاع من جديد.

تفرح الممرضة التي تشهد منظراً مؤثّراً من الألفة والحنان بين تولين وفداء، وتيمّم راكضة نحو الأب لتخبره بأنّ تولين قبلت أخيراً بمرضعة.

"يا إلهي لم كلّ هذه الفوضى من جديد؟ إيّاكم أن تقولوا أنّ هناك مفرقعات نارية من جديد، فأنا أكره كلّ المفرقعات، فهي من تسبّبت في نوم ماما، وهي من جعلت ماما تختفي، أنا جائعة، سامحيني يا ماما إن كنت قد رضعتُ من غيرك، لكنّني جائعة جداً، وهذه المرأة تبدو طيبة، فصدرها دافئ، ويداها ناعمتان كيديك، ورائحتها تشبه رائحتك، لكنّني بالتأكيد أحبّك أكثر، وأفضل حليبك. ماما أنا أحّبك، وأريد أن أقول إنّني أنتظرك، لكن متى ستعودين؟!"

سريعاً ما داعب النوم جفني تولين التي استسلمت طائعة له بين يدي فداء التي ضمتها إلى صدرها، يد ابنتها الصغيرة مسّدت على رأس تولين، وقالت بفرح من وجد كنزاً: "أحقاً يا ماما أنّ هذه الصغيرة قد أصبحت أختاً لي ولأخي؟" أومأت فداء برأسها مؤكّدة ذلك.

"مرحى، أخيراً أصبح لي أخت" قالت الصغيرة، وهي تقفز فرحاً في مكانها. ومن بعيد كان يراقبها والد تولين وهو متهالكٌ على كرسي خشبي باكياً بصمت، ويقول كمن يحدث نفسه: "كنتُ أحبّ زوجتي، لا يمكن أن أنساها، سأعيش على ذكرها ما حييت".

- "سأمر كلّ يوم على تولين لإرضاعها، وسوف أصحبها إلى بيتي للعناية بها، هذا بعد إذنك طبعاً" قالت فداء بتحفظٍ وحذر.
- "كانت أمّ تولين كلّ حياتي".

- "سأعتني بها ليلاً، وفي النهار سأرسلها إلى ذات الحضانة التي أضع فيها طفلي إلى حين انتهاء دوامي في المدرسة".
- "أنا لن أرى أم تولين أبداً".
- "سيد سامر هل سمعت ما قلتُ لك".
- "تولين سوف تبقى في رعايتي، أنا لا أستطيع الاستغناء عنها، ولكن يسعدني أن ترضيعها، بل يشرّفني ذلك".
- "ولكن ..."
- "أرجوك هي كلّ ما تبقى لي في هذه الدنيا، فالتفجيرات الغاشمة التي استعرض الإرهابيون قوتهم بها على النساء والأطفال والعزل قد حطمّت قلبي، ودمّرت أسرتي، وحرمتني من أحبتّي إلى الأبد، أنت لا تستطيعين أن تتخيلي الجحيم الذي عشت فيه، وأنا أبحث عن تولين بعد الحادث، لأجدها في هذا المستشفى تقبع وحيدة باكية.
- "ولكن ..."
- "أرجوك"
- "ولكن أين ماما؟ هل ستغيب طويلاً؟ هل ستبقى نائمة إلى الأبد؟ أنا أكره المفرقعات؛ لأنّها جعلت ماما تبتعد عني، ماما أنا أحبّك"

التوقيع: ابنتك تولين

"نور الصباح"

"إلى عمّار جودة الروح المعلّقة بين الطفولة والشباب، التي أحرقها الإرهاب دون رحمة"

على باب البيت يشدّ نفسه، يأخذ نفساً عميقاً، يحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه تنفي أنّه متعب ومجهد من عملٍ طويل في مطعم الفندق طوال الليل، يمسح قدميه بالدّواسة التي تستلقي بهدوء على عتبة الباب، يفتح الباب بهدوء، يتنحنح، يخلع سترته الجلدية السوداء القديمة، ويدلف مباشرة إلى غرفة والديه التي تعبق برائحة البخور والألفة التي عمرها سنوات طويلة توجّها أبناء كثر، هو أصغرهم جميعاً، يشعل ضوء الغرفة الخافت، يقترب من أمه باسماً، ويقول لها بهمس من يحدّث سادن معبّد: "صباح الخير يا أمي، إنّه وقت صلاة الفجر، ألن تصلي يا حبيبتي؟" تفتح أمه عينيها بهدوء ،وتقول بسكينة: "الله يسعد صباحك يمّه يا عمار، هل عدت؟".

يقول لها وهو يقبّل يديها الدافئتين الصغيرتين: "نعم يا ست الحبايب لقد عدت للتو".

- "هل أنتَ متعبٌ يا صغيري؟"
- "لا يا أمي، ولكنّني في حاجة إلى النوم، أرجو أن تيقظيني مساءً لأذهب إلى عملي".
- "ولا يهمك، سأيقظك في الوقت المحدد".
- "لا تنسي أن تدعي لي يا أمي".
- "أنا لا أنساك أبداً من دعائي يا طفلي الحبيب".
- "طفل!؟ لقد أصبح عمري تسعة عشر عاماً".
- "بل أنت طفلي الصغير مهما كبرت، حتى ولو أصبحت أكبر مُعَمّر في الدنيا، فستبقى طفلي الصغير المفضّل".
- "إذن ادعي يا أمي لطفلك الصغير أن تتحسن ظروفه المادية، ويفتحها الله عليه من واسع كرمه، ومن يدري قد أصبح يوماً مدير فندق ما".
- "ما عند الله قريب يا عمار".
- "لا تنسي يا أمي أن تيقظيني في الوقت المحدّد، إذا تأخرت سيُخصم ذلك من راتبي".
- "لا تقلق يا بني، سأتذكر تماماً موعد استيقاظك".

ووَفْقَ عادتها أيقظته في الوقت المحدّد، كان متحّمساً للوصول إلى عمله قبل دقائق من الوقت المحدّد، ليثبت أنّه أهل لعمله، فطموحه يحتاج إلى الكثير من العمل والمثابرة، قد يكون حظّه قد قصّر دون أن يحصل على شهادة جامعية تمهّد طريق أمنياته أمامه ، لكنّ إصراره

ونشاطه ومثابرته ستكون الطريق إلى ما يصبو إليه. بهذه العبارات وبهذه الفلسفة كان عمار جودة يتلّقى الدنيا بصدر محبٍّ شاب، للتو ودّع الطفولة، ودخل في ريعان الشباب، يعمل سفرجي في مطعم فندق (حياة عمان)، لكنّه متأكّد من أنّ هذا العمل هو أوّلى خطواته على سُلّم النجاح.

وصل عمار إلى عمله، ولكن متأخراً قليلاً بسبب زحمة الشوارع، واكتظاظ المواصلات، فالجوّ الجميل كان مغرياً بالتنزه والتمشّي في الطرقات، المطعم كان مكتظاً بالزبائن، وهذا يستدعي السرعة والنشاط، سريعاً بدلّ ملابسه، وانخرط في عمله المعتاد، ابتسم وهو يتذكر أمّه وهي تودّعه مساءً قائلة: "الله يرضى عليك يا عمار، احرص على نفسك، والله إنّك نور الصباح الذي يأتي كلّ يوم مع آذان الفجر".

لم يكن يشّم رائحة أيّ غاز عندما اشتعل المكان كالجحيم، وتطايرت محتوياته يمنة ويسرة، شعر بألم غريب يستقرّ في رأسه بعد أن اخترق جمجمته، كاد يصرخ طالباً عون أمه، لكن الألم ابتلع صرخاته، فوقع أرضاً لا يملك تفسيراً لما يجري، فلا هو عرف أنّ سبعة من أصدقائه في العمل قد وافوا منيتهم فوراً، ولا هو عرف أنّ المكان لم يتعرّض لتفجير عبوة غاز، ولا هو رأى وجوهاً آثمةً جاءت من الظلام، وفجرّت المكان بأبرياء انتصاراً لإسلام هو منهم براء، هو يعرف شيئاً واحد، وهو أنّه متألمّ للغاية.

كان في غيبوبةٍ عميقة منعته حتى من أن يسمع آذان الصباح، أو من أن ييقظ أمه للصلاة التي لم يكن يعلم أنّها منذ أيام تقف على باب العناية المركزة تقرأ القرآن الكريم له، وتدعو الله أن يخفّف من كربه، فإصابته خطيرة، وحالته في سوء. كلّها أمل في أن تستقر حالته، لكي يتسنّى لإدارة الفندق الذي يعمل فيه أن ترسله إلى العلاج في الخارج كما قد وعدت. تتأملّ وجه زوجها الذي بدت ملامحه قد شاخت بمقدار ألف عام منذ أن أُصيب عمار بشظية غاشمة، أبناؤها يلتفون حولها موزعين بين غضب على عدو آثم أسود القلب يستبيح دماء الأبرياء، وبين عطف يقتات قلوبهم على أخٍ صغير بعمر فراشة برية.

مراسل وكالة الأنباء الأردنية يهيء نفسه على خجل لأخذ تعليق زوجها حول حالة عمار، يقول الأب بصوت أجشّ يسكنه حزن رجل مكسور: "أنا محمد شاكر جودة، والد عمار جودة الذي أصيب في تفجير فندق (حياة عمان) ..."

وقع أقدام الطبيب المناوب الذي يضرب الأرض هوناً، ويكاد يجرّ نفسه منهكاً حزيناً يقطع أيّ كلام، تتوجّه العيون نحوه، تشرئب الرؤوس ،وتجفّ الحلوق، ينكّسُ رأسه، فيدرك الموجودون معنى إيماءاته، لحظة صمت، ثم يعلو صراخ الأم الثكلى قائلة: "يمّه يا عمار، من سييقظني بعدك لصلاة الفجر ؟ يمه قتلوك بدون ذنب، يا حبيبي يا يمه ، يا نور عيني" يتكوّم الأب على أريكة قريبة يبكي

بحرقة رجل ما بكى من قبل، يطأطأ مراسل وكالة الأنباء الأردنية، يمنعه الموقف من أن يقول أيّ شيء، أو يصوّر أيّ مشهد، ينتبذ مكاناً قريباً، ويشرع يبكي عمار الذي لم يقابله يوماً، ولن يعرفه إلا جثة هامدة كانت قبل ساعات فتىً يمور بالصحة والأمنيات، ويسعى في طريق المستقبل.

النبوءة

"إلى حسام فتحي جارور الذي رأى الموت قبل أن يحضر بشهرين"

غار في مقعده الوفير في مطعم فندق (حياة عمان)، وضع فنجان القهوة الذي كاد يرتشف آخر ما فيه، وقال بعصبية تعلوها رعدة تسير في كلّ أوصاله، وتعكّر حمرة وجنتيه: "تخيل أنّ يدخل الآن إرهابي إلى المكان، ويفجّر نفسه، ما هو ذنبنا إذا قُتلنا جراء ذلك؟!".

نظر إليه خاله عبد السلام محاجنة، الذي غالباً ما كان يرافقه في أيّ جولة عمل، أو لقاء صفقة، أو اجتماع إعلانات أو استشارة أو تسويق، وفي عينيه تعاطف من يرقب طفلاً يتحرّق شوقاً من شرير حطّم لعبته، وقال: "صحتك يا حسام، لا داعي لكلّ هذا الانفعال، ربنا على الظالم، فلا أحد يستحق أن يُقتل ظلماً".

قال حسام بنبرته المعتادة التي يعلوها صدق مؤثّر وإقناع كبير عُرفا عنه: "إنّه ليس فقط ظلم، بل جبن، فمن الجبن أن تطعن أحداً في ظهره، وأن تتسلّل إلى حياته بالخفاء، وتسرق روحه دون أن تعطيه

فرصة ليدافع عن نفسه، أنا شخصياً على استعداد للتصدّي وجهاً لوجه لأعتى المجرمين." قال عبد السلام محاجنة وقد هزت فكرة اغتيال حسام وجدانه: "الله يبعد الشر عنك يا حسام، إيّاك والتشاؤم".

"أنا لا أتشاءم، لكنّني أضع افتراضات ممكنة الوقوع" قال حسام، وهو يكاد يتمالك أعصابه من جديد، ويمدّ يده لتناول فنجان القهوة.

لم يكن عبد السلام محاجنة يعلم أنّ هذه الجلسة في مطعم فندق (حياة عمان) ستكون آخر جلسة له مع ابن اخته حسام الذي لم يكن يعرف كذلك أنّ كلامه لم يكن افتراضاً مخيفاً، بل كان نبوءة أصابت كبد الحقيقة، فقد رأى الموت يدلف إلى قاعة المطعم على يد إرهابي جبان، فيغتال أرواحاً بريئة لا سيما روحه هو، ويسقط في الدرك الأسفل من الجحيم، لقد أحسّ ببرودة الموت، وبصقيع يديه قبل شهرين من يوم ٢٠٠٥/١١/٩.

كاد ينسى حسام هذه النبوءة، بل نسي كلّ ذلك الحديث الذي دار بينه وبين خاله عبد السلام، وها هو الآن بعد مضي شهرين يحدّثه هاتفياً من نفس القاعة في فندق (حياة عمان)، ويجلس قريباً من المكان الذي كانا يجلسان فيه آخر مرة، ويبشره بأنّ الأمور تسير على ما يرام، وأنّه قد استطاع أن يعقد صفقات جديدة مع تجّار عرب ستدر المال الوفير على مصنعه ، ويعلمه أنّه في انتظار رجال أعمال من مدينة أبو ظبي، ليبرم معهم صفقة جديدة،

ووعده بأنّه سيكلمّه فور انتهاء اللقاء، أغلق الهاتف، واعتدل في جلسته، وطالع ساعته في انتظار الموعد الذي أزف، كان يرتب الأفكار التي سيقنع رجال الأعمال بها في عقله، رشف من كأس القهوة الذي أمامه، دون قصد لاح في ذهنه صغيره كمال الذي رُزق به منذ ستة أشهر بعد طول انتظار دام عشرة أعوم، حمد الله في سره إذ أنعم عليه بحسام الذي ملأ حياته سعادةً، وجعله يشعر بأنه قد استوفى كلّ أحلامه، فقد غدا أبا كمال، وصاحب أكبر مصنع دهانات في فلسطين، وحياته تتمتع بالراحة والاستقرار، داهمه شوق كبير لزوجه ولابنتيه رهام وآلاء، ووعد نفسه بضمّهم إلى صدره في آن واحد عندما يعود إلى أم الفحم في فلسطين حيث مسقط رأسه، ومستقر عائلته.

فكر في أن يهاتف زوجته لتسمعه صوت مناغاة كمال، وشرع في ذلك إلاّ أنّ الاتصال لم يتم؛ لأنّ الموت الذي تنبّأ به منذ شهرين قد جاء على قدر هيئة النبوءة، جاء أسود جبان لا عقل ولا قلب له، تسلّل إرهابي إلى مطعم الفندق، وفجّر نفسه بدعوى الإسلام والدفاع عنه، لم يكن أمام حسام وقتٌ ليقول للإرهابي:" إنّه ظالم لا يملك عقلاً." فقد تخبّط في دمه الذي كان أحمر صافياً كما لم يرَ الأحمر من قبل، تسارعت الصور في رأسه الذي بدأ الموت يسكنه، رأى نفسه يلبس ثوب الأفراح إلى جانبه زوجته الجميلة، وفي عينيه ابتسامة أخيه محمد الذي تزوج معه في نفس اليوم ، وشاركه حفل

الزفاف نفسه، سمع مناغاة كريم، ورأى ابنتيه وحيدتين خائفتين تتشحان بالسواد، تردَدت في غياهب ظلام الذاكرة جملة قالها لأخيه محمد في آخر رمضان شهده عندما أقام حفل إفطار للعائلة حيث قال: "سأبني للعائلة أكبر إمبراطورية لصناعة الدهان في العالم ... في العالم ... في العالم".

في ثلاجة موتى مستشفى الجامعة الأردنية سُجّي حسام الغارق في دمه الزكي، وقد علّق في رقبته بطاقة كُتب عليها بعجل: "مجهول الهوية".

أمضى حسام ليلته في برد تلك الثلاجة إلى أن جاء وفد من عائلته من أم الفحم على رأسهم عمه زياد أبو جارور، وتعرّفوا عليه باكين تسحقهم حسرة حزن، ضمّه عمه زياد إلى صدره باكياً، ونزع البطاقة من رقبته، وقال: "هذا ابن أخي، هذا هو حسام أبو كمال".

عاد حسام إلى أم الفحم محمولاً عن الأكتاف، ملفوفاً بعلم فلسطين، بعد أن قطع رحلة الحدود، ووقف في جسر الغور، واستلم شهادة من السفارة الإسرائيلية التي لم تساعد في أي شيء كُتب فيها تاريخ وفاته، ثم أوُدع في تراب قريته أم الفحم، وحوله حشدٌ من الأحبّة والأقارب والمساكين الذين كان يكفلهم، ويقوم بإعالتهم فضلاً عن تبرعاته السخية للمشاريع الخيرية، وللأندية الرياضية، ومشاركته المتكرّرة في ترميم المسجد الأقصى ودهانه. كان حريصاً على إخفاء ما تنفق يمينه، لكن الخير يأبى إلا أن يكشف عن صاحبه.

غادر المشيعون القبر بعد أن كلّلوه بزهورهم وبدموعهم، دون أن يروا أحلام حسام ترفرف حول القبر بجناحٍ مكسور، فقد كان يحلم بأن يوسّع مصنعه الذي افتتحه منذ أشهر قليلة، ليصبح أكبر مصنع للدهان في البلاد، بعد أن استطاع أن يرقى به من ورشة صغيرة إلى أخرى كبيرة ثم إلى مصنع. لكنّ الإرهاب حرمه من أحلامه، وحرم أحلامه منه، وما زال سؤاله يخيم على صمت القبور، فما ذنبه إن دخل إرهابي إلى أيّ مكان، وفجّر نفسه، أن يقتل جرّاء ذلك؟!

ذات الشـــعر الأســـود

"إلى مرام عقرباوي الحسناء الجميلة التي قدّمها الإرهاب إلى المقصلة دون جرم"

شعرها الأسود الطويل أجمل مفردات أنوثتها التي تتفتّح لتوهـــا على شباب يافعٍ نضرٍ، تطيل تمشيط شعرها الذي تزهـــو بـــه، تـــضمّخ حدقتيها بالكحل الأسود الذي يزيدها جمالاً، ويجعلهـــا أميـــرةً عربيـــةً تمتطي الجمال والشباب، تأخّرت كعادتها في تجهيز نفسها لحفل زفـــاف أشرف ونادية، استعجلتها أمّها سميرة وشقيقها عُلا، سريعاً ما لبـــست بنطالاً أسود، وحذاء أسود ومعطف أسود تحته قميصٌ بلـــون ســـكري غامق، ولم تنسَ أن تلبس في يدها الخاتم الذهبي المفضّل عندها الـــذي أهداها إيّاه والدها منذ زمن.

تأملّت الأم ابنتها الصغيرة الجميلة التي تتحوّل سريعاً إلى سيدة فاتنة رقيقة، منعها فرحها بصغيرتها مرام من أن تؤنّبها على تـــأخيرهم عن الحفل، شكرت الله في سرها على زهرتيها مـــرام وعُـــلا اللتـــين تتضوعان أريجاً . وفي غضون نصف ساعة كانت سميرة وابنتاها

وشقيقتاها وشقيقاها يلتفون حول طاولة فـــي قاعـــة الزفـــاف، يتقاسمون الحبور، ويتبادلون الابتسامات وسط قاعة تـــضّج بـــالزهور والمدعوين الذين يراقبون باهتمام زفة العروسين عبر أجهزة التلفـــزة المنتشرة في القاعة، كانت الزّفة جميلة، وأصوات الغناء تغلّفها إلى أن ظهر غريبٌ في القاعة، وأخذ يتراقص كالمجنون في ساحة الرقص، ثم سريعاً ما تّحول إلى آلة دمار شامل، فتكت بأجساد الموجودين، وألهبت المكان بدوي مخيف أصـّــم الآذان، وأزاغ القلـــوب، تنـــاثرت الأشـــلاء البشرية في كلّ مكان، وغدت عائلة سميرة أشلاء بين الأثاث المحطّـــم وعلى بتلات الزهور الغارقة في الدماء البشري.

رأس مرام غادرتْ جسدها مجبراً، تدحرجتْ بعيداً عنَ جـــسدها الذي غدا مضغة مسحوقة تماماً متكوّمة في ملابس سوادء. جمع رجال الإسعاف والطوارئ جسدها مع ما جمعوا من الأجساد، وبقيتْ الـــرأس وحيدة ملقاةً بين الطاولات المحطّمة.

محمود العقرباوي والد مرام كان يتابع التلفاز عندما صكّ أذنيه، وألهب قلبه خبر التفجيرات في الفنادق الأردنية، كالمجنون حزم نفسه، وغادر بيته الواقع في أمّ السماق، وحاول عبثاً الوصول إلـــى الفنـــدق، لكن ذلك تعذّر بسبب إغلاق الطرق إلى أن انفرجت الأوضاع، وأصـــبح من الممكن أن يطوف على المستشفيات ،ويبحث عن زوجتـــه وبناتـــه وأنسبائه.

ذاق عذاب الجحيم في ليلة كابوسية قضاها يطالع الجثث،

ويدلف إلى المشارح، لكنّه لم يظفر بأيّ خبر يطمئنه على عائلته، إلى أن انتهى به الطواف في المركز الوطني للطبّ الشرعي حيث قُدّمتْ له أجساد ممزقة، وكأن وحشاً جبّاراً قد لاكها دون رحمة، ثم لفظها بتقزّز، الأجساد كانت معدومة الملامح، وكاد ينكر أيّ صلة بها، لكن الملابس المعجونة بالأجساد لفتت نظره، تحامل على نفسه، ودّقق النظر في الملابس، كانت الأجساد أجساد عائلته، فهذا جسد زوجة سميرة، وهذا جسد ابنته عُلا، أمّا هذا الجسد مبتور الرأس هو بلا شك لابنته مرام، كم كان الجسد رهيباً بدون رأس!! كأنّه دجاجة قد مزق رأسها على عجل، كاد ينكر الجسد، لكن الملابس والخاتم الذهبي أكدا له إنْ شاء أم أبى أنّه أمام جسد حبيبته مرام، تذكّر كم كانت مرام تحبّ جسدها الغضّ ورأسها الجميل ذا الشعر الساحر!!وسأل عن رأسها دون جدوى، وخمّن أنها قد تهشّمتْ وتلاشتْ.

قوات الأمن والمخابرات الأردنية كثّفت البحث في الوقائع والدلائل، وحارت لمن يكون الرأس النسائي ذو الشعر الطويل، في التخمين الأول توقّعوا أنّها رأس إحدى الإرهابيين الانتحاريين، لكن الطب الشرعي أثبتَ أنّاه رأس فتاة صغيرة اسمها مرام العقرباوي، سُلمتْ الرأس سريعاً لوالدها لتدفن مع جسدها المطعون في شبابه.

بيديه المنهكتين أودع محمود العقرباوي عائلته في التراب، وكتب على شواهد قبورهم أسماءهم وأعمارهم، ثم احتضن من بقي من

أولاده على قيد الحياة، وغادر المقبرة يصكّ يداً بيد وهو يجهل ذنب عائلته التي أرادت أن تشارك عائلتي الأخرس والعلمي سعادتهم لتدفع أعمارها ثمناً لذلك، أيّ الجرائم اقترفت مرام كي تُقدّم إلى مقصلة الإرهاب، فتقطع رأسها دون رحمة، وتحرمها من متعة تمشيط شعرها الجميل؟!!!!

لم يستطيع أن يجد جواباً لأسئلته التي كادت تزهق عقله الذي خبره راجحاً لخمسين عاماً، اقتربت منه طفلته الصغيرة، وقالت له بنبرة سجع الملائكة، وبهدوء القبور: "بابا لماذا قتل الإرهاب ماما وأختيّ؟".

حدّق الأب في وجه ابنته، ومن دون قصد وجد نظره يركض سريعاً ليجثو أمام شواهد قبر أحبّته الذين دفنهم قبل قليل، وقال بحقدٍ يعتره الألم والحيرة: "لأنّه شرير لا قلب له، قد حالف الشيطان وتحدّى إرادة الرب باحترام النفس الإنسانية وبتقديرها".

دعوة للكبار فقط

"إلى أطفال زهدي وزينب الخمسة الذين ودّعهم والدهم بجملة: "لن أتأخر عليكم ."ثم لم يعد".

كثيراً ما يبدي أبناؤه رغبتهم في مرافقته إلى الحفلات والرحل العائلية، فهم يعيشون داخل جو أسري متماسك متكافل متعاضد، حيث الأبوان والجدّة والعمتان يعيشون جميعاً في بيت واحد، عماده الحبّ، لا الغنى الذي يفتقدونه، لكن هذه هي المرة الأولى التي يخرج أبناؤه فيها عن طورهم ،ويرفضون أن ينصاعوا لقراره، ويأخذون بالبكاء والاحتجاج؛ لأنهمّ يريدون أن يرافقوه خمستهم إلى حفل زفاف، يخمّنون أنهّم سيكون جميلاً. يمسّد الأب على رأس ابنه مصطفى، ويخاطبه بحزم عطوف، وكأنّه رجل في أوج رجولته لا طفلاً في التاسعة من عمره قائلاً: "يا مصطفى أنت الكبير، وعليك أن تتفهّم ما أقول، لا يمكن أن نصطحبكم إلى حفلة الزفاف؛ لأنّ هناك عبارة في بطاقة الدعوة تطلب عدم اصطحاب الأطفال، وأنتم لا ترغبون بإحراج ماما وبابا أمام أصحاب العرس، أليس كذلك؟"

يومئ مصطفى برأسه متفهماً مؤيداً والده، ويتناول أخته الصغيرة تمارا البالغة من عمر سنة من يديّ أمه، معبّراً عن وعدٍ برعاية أخوته الصغار إلى حين عودة أبويهم من العرس. يتقّدم محمد ابن السنين الست ،ويقول بتمّرد: "ولكّنكم ستصطحبون العمة فتحية معكم!"

يبتسم الأب ابتسامة عطف للثائر الصغير، ويقول "العمة فتحية كبيرة، لذلك تستطيع أن تحضر حفل الزفاف، عندما تصبح كبيراً مثلها سوف يكون بمقدورك أن تحضر كلّ حفلات الزفاف".

تبرز رغد من غرفة النوم قائلة: "هل هذا يعني أنّ لا فرصة لنا أبداً لنذهب معكم إلى حفل الزفاف؟"

هزّ الأب والأم رأسيهما بالنفي آسفين، وطبعت الأم قبلة سريعة على جبين الصغيرة تمارا التي تراقب ما يحدث بهدوء وبراءة، ودون فهم لما يجري بالتأكيد، يفتح الأب باب البيت، ويقول وهو يخطو خطوة خارجه مودعاً بعينه أزواجاً عشرة من العيون الغير راضية "أطيعوا جدتكم، وناموا مبكراً، لن أتأخر عليكم". يردّ الأبناء برضى مصطنع: "حاضر يا بابا".

لا حظ زهدي وزوجته زينب أنّ كثيراً من المدعوين قد اصطحبوا صغارهم معهم، ولم يأبهوا برغبة العروسين بعدم اصطحاب الأطفال، وشعرا بتأنيب ضمير؛ لأنهّما لم يصطحبا أطفالهما معهم، مع أنّهما كانا راضيين كلّ الرضى عن سلوكهما، تنهدا دون تعليق، لكن العمة فتحية نكأت قريحتيهما للاحتجاج عندها قالتْ بتبرمٍ : "أرى

أنّ هناك الكثير من الأطفال في هذا الحفل!!" قالت زينب بـــنهم من أُتيح له الكلام بعد منع "ليتني اصطحبت تمارا معي"؟

قال الأب بقناعة مصطنعة: "حسنٌ أنّنا لم نصحبهم معنا، فالحفلة ستستمر حتى منتصف الليل، والصغار عندهم دوام في المدارس غـــداً، وعليهم أن يناموا مبكرين ليستيقظوا وقد أخذوا قسطاً كافياً من النوم".

"انظروا إلى شاشة التلفاز، فقد بدأت زفّة العروسين" قالت فتحية بحماس أنسى الأبوين حديثهم حول اصطحاب أطفالهم إلى حفـــل الزفاف، كانت لحظات سعيدة، أبصار جميع المدعوين كانت تتوجّه إلـــى شاشات التلفزة، سيطر الفرح على المكان، وشاعتْ أريحية في أنفـــس الحاضرين تناغمت بسهولة مع موسيقى وأغاني الزفة، رجـــل بثيـــاب غريبة ظهر في المكان على حين غِرّة، رقص للحظـــات علـــى منـــصّة الرقص، ثم قام بحركة غريبة هي آخر مارآه الجميع بوضوح قبـــل أن يحّول الأرض إلى جحيمٍ تحتهم، ويحيل المكان إلـــى مجـــزرة بـــشرية شنيعة، شظية مجنونة اخترقت على عجل مؤخرة رأس زهدي، وفتـــتّ جمجمته، ونثرت دماغه في حضن فتحية التي دبّت فيها حالة هستيرية، تصرخ، وتطلب المساعدة لأخيها الذي لفظ آخر كلماته بـــسؤال حـــائرٍ قائلاً: "ما هذا ؟" كان المكان غارقاً في الهرج والمرج، حاولت زهديـــة المفجوعة وزينب أن تجّندا كلّ طاقتهما لتحـــررا زهـــدي مـــن المكان الذيُ سُجن فيه بين الطاولات المحطّمة، وأجزاء

السقف المنهارة، لكن دون فائدة، فلاهما استطاعتا إنقاذه، ولاهما هربتا من المكان، بقيتا تصرخان على الرغم من إصابتهما إلى أن جرى الزمن الرهيب الذي تعيشانه بطيئاً، وجاء رجال الإسعاف لمساعدة زهدي الذي أصبح في غنى عن أيّ مساعدة؛ لأنّه رحل منذ لحظات عن دنيا البشر لا سيما عن دنيا أولئك الإرهابين الذين لم يمهلوه حتى يعرف ماذا يحدث حوله بالضبط، وبأيّ الطرق يموت.

صراخ فتحية وزينب لم يتوقف أبداً، فقد كانت فتحية في حالة عصبية رهيبة، فهاهي تودّع في عام واحد أخاً ثالثاً لها، أخاً كان يعيلها هي وشقيقتها وأمها، ويشكّل الملاذ الوحيد لها ولأسرته. أمّا زينب فقد مزجت صرخات الألم الذي تعاني منه جراء أصابتها بالحادث بالسؤال الذي لا يفتر عن زوجها، كانت تبكي قائلة لكلّ من يزورها: "زهدي أُصيب في برأسه، وكانت رجلاه لا تتحركان، ولم أستطع بمساعدة أخته فتحية سحبه من صالة الحفل، هل هو ما يرام؟ أرجوكم أخبروني بما حدث له".

كان البيت يعيش كآبةً صامتةً بعد أن رحل عنه معيله مجبراً، وترك أسرة هو كلّ عتادها وسلاحها في هذه الحياة، فتحية لم تستطع أن تنسى أبداً دماغ زهدي الذي تفتّت في حضنها، والدة زهدي الصامتةَ صمت القبور دفنت زهدي في صدرها كما دفنت أخويه من قبل، فأنبتَ صمتها شجرة صبّار سقتها الدموع ، حملتْ حفيدتها تمارا، وراقبت أحفادها الذين باتوا يفخرون بأبيهم زهدي الشهيد،

وحدقت لساعات في صورة فوتوغرافية لزهدي مـــع أســـرته التي التقطها مصوّر الحّي لهم في عيد الفطر الماضي، ولم تستطيع أبداً أن تنسى طلّته البهية قبل أيام، وهو يخطو خطوة خارج البيت، ويقول: "لن أتأخر عليكم". تمسّد على رأس حفيدتها تمارا، وتبكي بحرقـــة؛ لأنّ زهدي تأخر مجبراً، ولا يمكن أن يعود أبداً.

مستشـــفى الأرواح

"إلى أميرة دعّاس التي تحسن الإصغاء إلى نداء روحي ابنتيها: رهام وريما".

على الرغم من نظرات الشفقة والاستنكار التي تًجابه بهما فـــي المستشفى، التي غالباً ما تتحوّل إلـــى عيـــون مترّصـــدة تحاصـــرها، وتجبرها على العودة إلى فراشها، ثم تحقنها بالمهدئ لتسدر من جديـــد في عالم برزخي غريب تسمع فيه أصوات أغاني الفـــراح وزغاريـــده التي سرعان ما يبدّدها انفجار عنيف له أنياب فك مفترس، هي مصّممة هذا اليوم بالذات على تتّبع أصوات ابنتها مهما كلّفها الأمر، فهي علـــى يقين من أنّ روحي ابنتيها تقبع في نهاية عنبر جرحى الانفجارات.

في كلّ ليلة تسمع ابنتيها تئنان، وتطلبان المساعدة، وعليها أن تساعدهما، لن تسمح لروحيهما بأن تتعذبا كما تعذبّ جسديهما في ليلة الانفجارات.

أميرة متأكدة من انّ هذا المستشفى قد بـــات يعـــجّ بـــالأرواح الهائمة منذ عشية الانفجارات،كثيرٌ من الأجساد الحيةالنظرة السعيدة

التي كانت تموج في سعادة زفاف ابن عمها أشرف قد تحوّلت إلى جثث هامدة أو أشلاء متناثرة هنا وهناك أو حالات خطيرة مفعمة بالجراح والشظايا. هذا المستشفى الذي تقبع فيه منذ الليلة المشؤومة كان موئلاً لعشراتِ الحالات، كما كانت مشرحته آخر المطاف للجثث والأشلاء، معظم الجثث قد سلّمت لذويها كي تُدفن، لكن أرواحها ما زالت هائمة في هذا المكان تئن متألمة، بعيون زائغة، وملامح شاحبة ،يعلوها خوف وحيرة، هي الوحيدة في هذا المكان التي ترى تلك الأرواح، تحدّثها طويلاً، هي ليست مجنونة كما قد يظن البعض، ولا مصابها بقواها العقلية إثر ما حدث كما تقرأ في عيون الأقارب الذين يزورنها للاطمئنان عليها، فيحوقلون كلما سمعوها تجأر باسم ابنتيها، وتناديهما، بل هي أم رأت ابنتها قتيلتين من دون ذنب، تريد أن تضمّهما إلى صدرها ولو مرة واحد قبل أن يلتهمهما الموت، تريد أن تسدل بيديها الحانتين أجفانهما قبل أن تتهاديا في دنيا من السكون السرمدي، تريد أن توسّد رأسيهما للرمس، وأن تكون آخر عهدهما بالدنيا، كما ستكونان آخر عهدها بالسعادة والفرح، لكن كلّ ذلك لن يكون؛ لأنّ رهام وريما قد دُفنتا منذ أيام دون أن تراهما أو أن تودّعهما، دفنتا بسرعة الموت الذي جثا بجبروت على جسديهما الصغيرين ،فهما لم تتجاوزا الخامسة عشر والسادسة عشر من العمر.

كان عندها الكثير من المخططات لهاتين الزهرتين اللتين تسيران

بخفرٍ نحو الشباب والأنوثة، كانت تريد أن تدرسا في الجامعة، كانت تحلمُ بأن تزفهما إلى دنيا الزوجية في ليلة واحدة، كم ستكونان ليلتها رائعتين وجميلتين بابتسامتين تقطران رضىً وتفاؤل كتلك الابتسامة التي علت محياهما في ليلة زفاف ابن عمها أشرف!! كانتا تجلسان متقاربين إلى صدر إحدى الطاولات في المكان بعد أن صممتا على الحضور على الرغم من التزامهما بدوام صباحي في المدرسة في اليوم التالي، كانتا تتابعان زفّة العروسين في أقرب تلفاز منهما، عندما تركتهما أميرة، وانطلقت سريعاً نحو باب القاعة تستقبل العروسين بالزغاريد التي تحفظ الكثير منها، ولم تكن تعلم أنّ هذه اللحظة ستكون لحظة الفراق، وأنها لن ترى ابنتيها على قيد الحياة بعد هذه اللحظة أبداً.

فجأة لمع ضوء غريب في المكان رافقه دوي يصمّ الآذان، للحظة تخيّلت أميرة أنّه تماس كهربائي، لكّنها رأت شاشات التلفزة تتحطّم، وألفت سقف القاعة يهوي على رؤوس الحاضرين، فأدركت لحظتئذٍ أنّ الأمر يعدو أن يكون تماس كهربائي، وهي ترى الأجساد التي حولها تتساقط صرعى وجرحى، عمّها والد العريس كان يخبط في دمه، حاولت أنّ تساعده، لكن كان يبدو أنّ الموت قد سبقها إليه، أسرعت نحو ابنتيها، حاولت أن تساعدهما، أن تحثّهما بكلماتها على التحّرك، لكن دون فائدة، كانتا سادرتين في استسلام مخيف، لم تستطع أن تحرّكهما من مكانهما، فقد كانتا عالقتين بين الركام، سرعان ما

أُغمي عليها متأثرة بجراح لم تكن تعلم أنها قد نالت منها.

عندما استيقظت وجدت نفسها في سرير الشفاء وحيدة تحمل ذكرى ابنتين لم تعودا في دنياها.

الكلّ يقول لها إنّ عليها الصبر والاعتناء بصحتها، ولا أحد يصدّقها، بل لا أحد يستطيع أن يسمع صوت ابنتيها تئنان، وتطلبان مساعدتها، روح رهام وروح ريما هائمتان في حاجة إلى احتواء، هي تسمعهما، وعليها أن تلبي نداءهما، وأن تمسح دموعهما، تدفع بجسدها خارج غرفتها، وتركض سريعاً في طرقات المستشفى لتلبي دعوة رهام وريما، ولتضمهما إلى صدرها حيث لا موت ولا تفجيرات إرهابية غاشمة تفتك بالأحلام وبالابتسامات البريئة.

نــوارس البحــر

"إلى نورسي البحرين إيمان عبد الغفار وحمد جناحي"

كثيرةٌ هي نوارس البحرين التي تقطع البحر بأجنحتها البيضاء، وتيمّم نحو الأردن، تهجع غالباً في إحدى فنادق العاصمة لا سيما فـــي فندق (حياة عمان) الذي يفضّله البحرينيون، ويـــسعدون فيـــه بحـــسن الضيافة وبتجمّع الأحباب والأقارب والمعارف لا سيما البحرينين، إيمان وحمد نورسان من نوارس البحرين التي شـــدّت الرحـــال إلـــى الأردن بهدف الدراسة، لم يجتمعا يوماً ولم يعرفا بعضهما على الرغم من أنّهما مواطنان بحرينيان، لكن طموح العلم وحّـــد طريقهمـــا، وشـــابه بـــين هدفيهما، إيمان طالبة جديدة العهدة بالأردن، لكن حمـــد يعـــرف الأردن منذ سنوات، فقد درس في الجامعة التطبيقية، وهاهو بعد ســـنين مـــن الغربة والجّد يُعيّن مسؤولاً إعلامياً في جامعة العلوم التطبيقية التي فُتح لها مؤخراً فرعٌ جديد في المنامة.

توقّع حمد أن يطول به البُعاد عن عمان التي أحبها، وأمضى فيها

أجمل سنين الدراسة والشباب، وما زالت نفسه تنزع إليها، وإن كان حبّ الوطن والعيش بين العائلة يجذبه إلى البقاء في وطنه، ولكن قد جاءه الخبر السعيد عندما قررت الجامعة أن تبعثه في دورة تدريبية إلى الأردن مدّتها شهر، طار فرحاً بهذه الزيارة، ونزل خبرها على كبده نزول البرد والثلج، ألقى نظرة وداع على الوطن والأهل، وانسرب مع رياح الصباح المثقلة بالنّور والحرارة والرطوبة، وطار صوب الأردن.

كانت الأردن كما عهدها آمنة مبتسمة تحمل آلاف الزهرات والحكايات والأمنيات، تضّم الغرباء ضمّة الأبناء والأحّباء، ضمّته بحبّ كما ضّمت مواطنته إيمان التي التحقت مؤخراً بإحدى جامعاتها للدراسة، قطع شهراً كاملاً في متابعة فعاليات الدورة التدريبية التي اجتهد كي يحصّل منها ما استطاع من علم وخبرة، ويعود إلى جامعته التي ابتعثته في هذه المهمة بخير ما يُرتجى من المعرفة، لذك لم يجد وقتاً يقضيه مع زملاء الدراسة، ولا حتى متسعاً يذرعه في عمان التي حفظها شبراً شبراً، سريعاً ما انقضى الوقت، وكان عليه أن يعدّ العدة ،ويحزم ما عليه أن يحزم ليمدّ جناحيه ويطير إلى بلده، لكن رغبة في النفس كانت لا تزال تلّح عليه لقضاء بعض الوقت مع حبيبته عمان، فكّر قليلاً، فانتصر حبه لعمان على دعوة الرحيل والبعاد، مدّد زيارته ليومين آخرين، لا يظن أنّهما سوف يُعّدان تأخراً عن جامعته، سريعاً ما استجاب لقراره الأخير، وأعلم جامعته وعائلته به.

وأخيراً خلا له وجه حبيبته عمان، كان لديه مخطط لزيارة كــلّ شبر فيها، بدأ برنامجه بشرب القهوة في مقهى فندق (حيــاة عمــان) الذي ينزل فيه، كان في انتظار صديق، لكن رغبة غريبة اجتاحته تملي عليه أن يطمئن على أسرته في البحرين، رأى وجه والده كسيفاً حزينــاً يرجوه الإياب، أحسّ بطائر أسود يجثم علــى صــدره، ويمنعــه مــن الطيران، انصدع قلبه قلقاً على أسرته، هرع سريعاً إلى خدمة الهــاتف في استقبال الفندق، اتصل بوالده واطمئن عليه، فوجده في خير حــال، أخبره أنّه سيعود بعد يومين، وأنهى المكالمة على أمل اللقاء الذي ضجّ في نفسه قوياً كما لم يعهده يوماً.

جلس إلى طاولة يحتسي القهوة بهدوء، من وقت إلى آخر كان يسرح مع ذكرياته التي تتدافع الآن بقوة في رأسه، في حــين أنّهــا لا تزال تنمو صغيرة وببطء في حياة إيمان التي تقبل على الحياة الدراسية والاجتماعية في عمان، وتجتهد كي تثبت جدارتها واستحقاقها لــشرف جهاد العلم، كلاهما كان نورساً جميلاً يحمل حكايا البحر وأسراره عندما جاء صيّاد إرهابي أسود لم يذق جمال البحر ولا حلاوة الحكايا، وأطلق الموت على النورسين، ودوّى زاعقاً بالموت والخراب، كلّ شيء غــدا ذكريات مهشمة في دقائق، شظايا كثيرة باردة مثل قلب الإرهابي سكنت جسدي إيمان وحمد، وكسرت جناحيهما، وخضّبت جسديهما بالموت.

لم يستطع جسد حمد أن يحتمل الشظية القاتلة التي استقرت

فيه، فأسلم الروح سريعاً، وحلّق نحو ملكوت الرب، أمّا إيمان فقد قارع جسدها النحيل الموت بلا هوادة، كانت مصمّمة على الحياة، أُخضعت لعمليات أربعٍ كبرى، كان يعلوها صمت غريب وهي تصارع الموت، وتتحداه مسجّاة على سرير في غرفة العناية المركّزة، لم تكن تدري بما يدور حولها، وما كانت تعرف من يكون ذلك الشخص الذي جاء يحمل الموت إليها، ويكسر جناحيها دون أيّ ذنب، كانت في أحلامها ترى نفسها تطير إلى البحرين، فتجد والديها في انتظارها، تسكب نفسها في حضنهما وهما باسمان كعادتهما، وما كانت تدري أنّ والدها يقف خارج غرفتها يدعو لها بالشفاء، وما كانت تعلم أنّ نوارس من بلدها قد استشهدت على أرض عمان، وأنّها لن تعود طائرة بأجنحة من نور إلى البحرين، بل ستعود في صناديق باردة صماء لتُدفن في أرض البحرين، حيث الحبّ والأهل.

غناء الملائكة

"إلى نجاح سليمان التي سرق إرهابي القرآن الذي حفظت نصفه من ذاكرتها".

كلّ الحكايا كانت محزنة، كلّ جثة أو جسدٍ مسجىً على سرير الشفاء معلّق بين عالمي الأجير والموت يحمل ترنيمة حزينة خاصة، يتناوب الألم والأنين والصراخ عليها، إلا ترنيمةَ نجاح سليمان، فهي ترنيمةٌ خاصة تحاكي غناء الملائكة فقد كانت بين الحياة والموت، غائبة عن الوعي تماماً، لكنّها كانت ترّدد القرآن الذي تحفظه دون توقّف، تهمس به وفق إجهادها وتعبها بعد أن نزفت الكثير من الدم، وكأنّها تخشى إن توقفت عن تلاوته أن تفقده للأبد، كما كادت تفقد حياتها قبل دقائق، لا زالت تقف عند بعض المقاطع التي عندها مشكلة في حفظها حتى الآن، لكنّها سرعان ما تتذكرها، فتشرع تتلو ما تحفظ دون أن تفتر أو تصمت، وكأنّها ترغب في أن تلاقي ربها، وهي تردّد كلماته التي أنفقت جهداً وزمناً تحفظها ، وتتدبّر معانيها ، وإن كان عليها الكثير من العمل لكي تحفظ الجزء

الثاني من باقي القرآن الكريم الذي تؤمّل النفس بالعمر كي تحفظه، وتتدبّر آياته.

كانت متدثّرة بحجابها الشرعي الذي مُسّت قداسته بالظلم والبغي عندما أقدم آثم، دينها العظيم المتسامح براءٌ منه على تفجير نفسه في حفل زفاف قريبها أشرف، كانت لحظتها خلف زفة العروسين، تسبح باسم الله، وتدعوه بأن يحفظ أشرف وعروسه من عيون الحاسدين، وشر الحاقدين، وما كانت تتخّيل أنّ الشر الأعظم يتربصّ بكلّ الموجودين، لا بأشرف ونادية فقط، بل يتربّص بكلّ إنسان آمن في وطنها الحبيب.

في لحظة واحدة غاب فيها ضمير ذلك الإرهابي حلّ الموت على كلّ الموجودين، حتى أنّه لم يرحم الجمادات من أبواب وطاولات وزجاج، كلّها غدت شظايا وحطام يشبه تلك الشظية التي اخترقت الجهة الخلفية من يسار جمجمتها، واخترقت دماغها، وارتدت من الجهة الثانية لتستقّر في مقدمة الرأس عند الجبين، لقد أدخلتها تلك الشظية في غيبوبة لعينة حتى قبل أن تستطيع أن تدعو الله بالرحمة، وقبل أن تشكره على أنّه سيهبها الشهادة التي ما انفكت تحلم بها، وإن كانت تحلم بالشهادة في أرض المعركة لا على يديّ إرهابي يدّعي أنّه مسلم غيور على دينه، ولذلك يُعمل سلاحه وفتكه في أجساد الأبرياء العُزّل من السلاح.

كان الألم هو كلّ ما تتذكّر نجاح عندما استيقظت بعد سكون

طويل لتجد نفسها محاطة بالأقارب الذين قضوا ساعات رهيبة يبحثون عنها في المستشفيات، ويطالعون الجثث في ثلاجات الموتى آملين أن لا تكون في إحداها. يد دافئة شدّت على يدها، لم تستطيع أن ترى تماماً وجه صاحبها، كانت الرؤية عندها قد تشوّشت تماماً بسبب الشظية التي اخترقت جمجمتها، سارعت صاحبة اليد الدافئة قائلة بصوت يغلّفه بكاء مكتوم: "الحمد لله على سلامتك يا نجاح، أنا أختك سميرة، ألم تعرفيني" صمتتْ نجاح قليلاً، تدافعتْ في ذاكرتها سيل من الصور والأصوات، لكنّها لم تستطيع أن تميّز صوت أختها سميرة فيه، بل طغى عليه دوي الانفجار، وصوت المصابين، قال الطبيب: "لا عليكم، لا تخافوا، لقد تأثرت ذاكرتها بسبب أصابتها الخطيرة، لكنّها ستسترجعها بالتدريج، عليكم بالصبر".

هزت سميرة رأسها مستسلمة لقضاء الله، متفرّسة في وجه أختها نجاح الذي يعلوه حزن غريب، دون أن تدري أنّ رأس أختها الصغير يضّج بذاكرة تحاول أن تتذكر القرآن الذي كانت تحفظه لكن دون فائدة، تقرأ البسملة أكثر من مرة، ثم لا تفلح بتذكّر أيّ كلمة بعد ذلك، يعلق الصمت بين شفتيها، يعلو صوت الانفجارات في أذنيها، وتخفق في ترديد غناء الملائكة الذي كانت تحفظه، تشهق بصمت، ثم تسدر في بكاء محموم.

دعوة إلى المـــوت

"إلى فارس العتيبي الذي دعا ابن عمه محمد إلى موته دون أن يدري".

"كلّ بلاد الله زينة، أنا أدري بذلك، لكن عليــك أن تــزور هــذه الديرة، فهي غاية في الجمال" بهذه الجملة التي كررها فارس على أذنيّ ابن عمه محمد مراراً حاول أن يقنعه بأن يزور الأردن للاستجمام فيها.

على غير توقع وافق محمد هذه المرة علـــى أن يــزور الأردن بناءً على إلحاح ابن عمه، فهو في شوقٍ حقيقي لرؤية فارس صــديق طفولته، ثم إنّ هذه الزيارة تناسب برنامجه لا سيما أنه يشعر بمللٍ في قطر، ويرغب في التعرّف على أماكن جديدة، وأســبوع سيقــضيه فــي الأردن ليس مدة طويلة يغيبها عن أهله ووطنه.

كان محمداً محمّلاً بالآف القصص والمغامرات ليرويها لصندوق أسراره محمد المنتظر الوحيد لفارس عند وصوله إلى الأردن . ضــمه بقوة إلى صدره ، وانهال عليه بأصدق كلمات الاستقبال والسعادة

برؤيته. سأله عن أحوال الأهـل والأقـارب، وشـرع يعّرفـه بالأماكن وبأسمائها طوال طريق عودتهما إلى الفندق حيث حجز غرفة مزدوجة له ولابن عمه، حدّثه طويلاً عن الأماكن التي عليه أن يزورها في الأردن، في حين كان محمد يبدي حماساً لكلّ مكان يعـرض عليـه زيارته.

بعد راحة قصيرة توّجه كلاهما إلـى مطعـم الفنـدق ليحتـسيا الشاي، وليطفقا في زيارة مرافق عمان، كان الـشاي شـهيّاً، ويعلـوه حديث أخوي صادق وضحكات بريئة ممترعة شباباً وصحة، وما كـان أحدهما قادراً على أن يتوقع أنّ عيناً آثمة تتلصّص على حدثيهما، وتعد بإنهائه بأبشع الطرق التي جاءت تحمل أقسى أنواع المـوت، قبـل أن يكمل محمد وفارس أوّل رشفة من الشاي كان المكان قد تحـوّل إلـى جهنّم تلظّى، وقد دّب الهرج والدمار في كلّ مكان، كان فارس يغرغـر برشفة الشاي التي استقرّت في حلقومه، ويخبط في بركة مـن دمائـه الحارّ اللزج، اندفع محمد في صراخ يقطعه رجاء لفارس كي يرّد عليه، لكن دون فائدة، فقد كانت فارس صامتاً كصمت القبور، وإن كان جسده نافورة تدفع الدم الزكي أنّى اتفق. تحامل محمد على جراحة البـسيطة، وحمل ابن عمه، وأوقف أول سيارة أجرّة توقّفت في المكان، لينقل ابن عمه إلى مستشفى الأردن، المستشفى الوحيد الذي يعرف اسـمه فـي عمان، وسرّه أن يجد رجال الأمن والإنقاذ قبالة باب المطعم، إذ بـادروا إلى مساعدته، وتلقف ابن عمه من يديه المجهدتين.

كان المستشفى يعجّ بالمرض والمسؤولين الحكوميين والـــزوار ورجال الإعلام، وكان محمد يرقب كلّ ذلك بصمت تعلوه دموع من يفتقد أهله في هذه اللحظة، كان عزاؤه الوحيد أنّه استطاع أن يقدّم المساعدة لابن عمه فارس، وأنّه الآن يتماثل للشفاء في مستشفى البـــشير الـــذي نقل إليه كما أُعلم قبل ساعات.

كان يعدّ اللحظات كُي يُشفى فارس، ويـــستيقظ مـــن غيبوبتـــه ليعودا إلى وطنهما، قد يعودان في ما بعد في زيارة إلى الأردن، فهو لم يزُر أياً من معالمها خلا الفندق والمستشفيات، لكّنه الآن في حاجة إلى بيته، صرّح بتلك الأمنية لأحد مراسلي الصحف الذي قام بإجراء مقابلة سريعة معه، ثم تكوّم في كرسيه القديم ينتظر أن يعود بفارس إلى قطر، دون أن يدري أنّ فارس قد أسلم الروح منذ ساعات، فهو لم يكـــن قـــد دعاه إلىّ زيارة عمان وحسب، بل كان قد دعاه إلى تذوق ثمار الحسرة في حفل موته دون أن يفي بوعده بتعريفه على كلّ معالم عمان.

خيّم الليل، وهدأت الفوضى، وما زال محمد على كرسيه ينتظـــر أيّ خبر من طبيب أو ممرضة يبّشره بتحسن حالـــة صـــديق طفولتـــه فارس.

أحـــلام المســـاء

"إلى سلطان محمد الذي كان يملك أحلاماً صغيرة صادرها الإرهاب دون أن يبالي بأحزان أحبّته".

كان سلطان يملك أحلاماً صغيرة لا تتجاوز حقوقه الطبيعة فـــي تكوين أسرة تشمله بحبّها، وفي حياة كريمة يموّلها براتبه الزهيد الذي لا يكاد يكفي لقضاء ليلتين في إحدى حجر الفندق الفاره التي يعمل فيه ليلاً منذ زمن، لم يكن يريد الكثير من الحياة التي علّمته بقسوة أنّ حظّ الكثير منها لا يعدو أن يكون الكفاف، وعلى أولئك النـــاس أن يرضـــوا بنصبهم وحظّهم، هو كان راضياً بنصيبه، قابلاً بالصحة وراحـــة البـــال غنيمة في هذه الحياة.

منذ أشهر قليلة شرعت أحلامه الصغيرة تتحّقق ، لقد خطب فتاة ظريفة، سيقترن بها بعد شهر، يعدُّ أيامه بفارغ الصبر كي تنفـــد ، ويجمعه بيت واحد مع الفتاة التي اختارها لتكون شريكةً لحياته، وأُمّـــاً لأطفاله ،لم يكن يعلم من قبل أنّ انتظار السعادة يولّد فـــي الـــنفس سعادة لذيذة تداعبّ كلّ ذّرة من كيانه،وتدفعه إلى سيل من

الأحلام اللذيذة التي تنتهي بنقلها كلمات إلى أصــدقائه زيــاد اللحام وخليل العزة وموسى تركي، الذين اعتاد على أن يحــدّثهم فــي المناوبات الطويلة عن أحلامه ومستقبله وطموحــه، لديــه أحــلام لا تنضب، تحتاج عمرين لا عمر واحد لتحقيقها وفق إمكانياته المحدودة.

اعتاد على أن يكون راوي الأحلام المسائية التي تــراوده دون توقف، فتسلّى لياليه الطويلة، وتؤنس مناوباته الطويلة.

شهر واحد فقط ويكون موعد زفافه، لــذا عليــه أن يــضاعف جهوده ليتوفّر له مبلغ إضافي من المال يساعده على أن يرفّــه نفــسه وعروسه في أوّل أيام زواجهما، إذ إنّه سيأخذ عطلةً من العمل ليرتــاح فيها عن عناء السهر والعمل. كان حريصاً على أن يصل عملــه قبــل انتهاء مناوبة أصدقائه كي لا يأخّرهم عن موعد عودتهم إلى بيــوتهم، فهو يعلم أنهّم متعبون، وفي حاجة إلى الراحة، فضلاً عن رؤية أبنائهم، ولو للحظات قبل أن يودعوهم في أسرّتهم ليناموا.

وصل قبل الساعة التاسعة بدقائق، سريعاً ما انــدسّ في زي عمله، وقّع على دفتر المناوبات، وودع أصدقاءه الذين تمنّوا له ليلة هانئة، وغادروا على عجل. قبل أن يبدأ طقوس عمله اليومي كــان طائر الموت يحلّ على المكان، ويغرز مخالبه في جسد أَمــنْ ســلطان. تفجير مفاجئ وقوي هزّ المكان، تحوّل كلّ شــيء إلــى ذكــرى، وقــع سلطان أرضاً يلفظ آخر أنفاسه ، ويراقب بعجزٍ زيه يتلطّخ بدمه ، حاول أن يصرخ بأسماء أصدقائه مستنجداً ، ولكن ضعفه خانه، أغمض

عينيه، فمرّ أمامه شريط أحلامه كاملاً، رآه منخرقاً محترقـاً، كاد يتبيّن بعض أجزائه لكن دون فائدة، سريعاً ما أسلم الروح، وتـرك أحلامه يتيمةً هائمة على وجهها.

أُجّل زفاف سلطان إلى الأبد، ولبستْ خطيبته الأسـود بـدل أن تلبس ثوب الزفاف الأبيض، ودفنت أحلامها مع أحلام سلطان الذي مـا عاد قادراً على أن يروي أحلامه لأصدقائه، ولا قـادراً علـى أن يـأتي ليتسلّم مناوبته المسائية بعد أن ترك زياً مخضّباً بالدم صـمّم صـديقه زياد على عدم غسله، ولوّح به في مسيرة الغضب الوطنية التي نـددّت بالإرهاب الذي حرم الأبرياء من أحلامه.

عاد زياد إلى عمله، وعلّق قميص سلطان على مشجبٍ يواجهه كي لا ينسى أبداً أحلام صديقه التي لن ترحل عن المكان.

الهاربة من الموت

"إلى آنّا بورد التي مرّ الموت من جانبها"

قابلت الموت مراراً في بلدها حيث لا أمــن فــي الطرقــات المظلمة، ولا في قلب ظلام المساء، ودرّســتْ فنــون لعبتــي الحيــاة والموت طويلاً في معهد كولومبيا لدراسات الحــرب والــسلام منــذ أن غدت أستاذة جامعية فيه، ثم تحدّت الموت علانية عندما قبلت بأن تعمل في تطوير التعليم في أفغانستان، حيث توقّعت أن تصادف الموت في أيّ لحظة في تفجير أو في رصاصة طائشة، فتسقط قتيلة ضحية العنــف أو الإرهاب أو أيّ شيء قد تدّعيه أمريكيا تعليلاً لموتها.

جاءت آنّا إلى الأردن لحضور مؤتمر برعاية جامعة جنيف عن اللاجئين الفلسطينيين، حضرت الكثير من المحاضرات حول أوضاع اللاجئين الفلسطينيين ، وكثيراً ما ألفت نفسها تمسح بطريقــة تمثيليــة متقنة بعض العبرات التي علّلتها بالحزن على أوضــاع الفلــسطينيين ، وإن كانت تخشى بحق الموت الذي كادت تجده في كلّ مكان في

الوقت الحاضر، كانت تنوي أن تقتل الإحباط الذي أصابها في هذا المؤتمر ببعض الجولات الترفيهية، التي تنوي أن تذرع عمان فيها برفقة صديقتها، الفرنسية التي تصغرها بعقد (شيراز سكيو)، التي كانت متحمّسة لزيارة وسط البلد بشكل خاص.

كان عرس أشرف ونادية أول فعالية تراها آنّا بعد حضور فعاليات مؤتمر اللاجئين الفلسطينيين، وقفت هي وثلة من الأصدقاء فضلاً عن كثير من الأجانب في قاعة استقبال الفندق تحضر زفة العروسين، وقد كانت أوّل زفة لعرس تراها في الأردن، أرهفت السمع للأغاني الشعبية التي تصدح بها فرقه الزّفة، وألفت نفسها تدندن مع الحاضرين، وتسمح لنفسها بأن تخرج عن وقارها الأكاديمي، وتشاركهم التصفيق والحبور، وقفت بعيداً تفصلها عن الزفة أجساد الكثير من الحضور وبعض نباتات الزنية الضخمة المزروعة في أحواض رخامية أنيقة، لم تكن تقلّ عن باقي الحاضرين انبهاراً بالزفة وبمنظر العروسين المبتهجين، وإن كانت تفوق الحاضرين إحساساً بعظمة الحياة والسعادة؛ لأنّها تعرف تماماً وقع الموت على الأماكن والبشر، كانت تبحث عن جهاز الاتصال الخاص بها لتلتقط صورة للعروسين تخزنها فيه للذكرى عندما أحسّت بحاضر بارد اعتادت أن تسمع عنه وأن تواجهه من بعيد، لكنّه لأول مرة يمرّ من جانبها تماماً، فتدرك برودة قلبه، وتزكم رائحته المنتنة أنفها، لقد كان الموت في المكان، أحسّت بذلك تماماً، لكنها خشيت من أن تصرخ هاربة منه،

فيتهمها الموجودون بالجنون، في حين كـــان إرهـــابي مجـــرم يتسلّل إلى المكان، يتخطّى الموجودين، ويضرب صـــفحاً عـــن ســـعادة المحتفلين، يتوسّط قاعة الزفاف، ويّفجر نفسه كمجنون يصمّم علـــى أن يخرق سفينة، ويغرق كلّ من فيها، فقط لأنّه يكره البحر، ولا يـــستطيع أن يفكّ أبجدية جماله.

الزّفة التي كانت تراقبها آنّا تحوّلت في لحظة إلـــى جدارية فسيفسانية محطّمة، يغلب عليها اللون الأحمـــر القـــاني، أحـــد الجدران سقط في القريب، فسحق بعض الناس تحته، الشظايا انغـــرزت بعشوائية في الأجساد التي كانت قبل ثوانٍ سعادة تذرع المكـــان جيئـــة وذهاباً، شعرت آنّا للحظات أنّها قد فقدت السمع، ومـــا عـــادت تـــسمع شيئاُ، بل ترى فوضى لا تستطع أن تفكّ أبجديتها، أو أن تعرف ســـببها، صوت الانفجار لا يختلف أبداً عن أصوات الانفجـــارات التـــي اعتـــادت على أن تسمعها في أفغانستان، ولكنهّـــا لأول مـــرة تكـــون فـــي أرض الانفجار، لا في أقصى نقطة ممكنة عنه بحيث تسمعه، ولا تتأذّى بـــه. أصابتها حيرة عجيبة جعلتها تتمترس في مكانها، أتراه الموت قادم من أجلها؟ فليس من المجدي أن تهرب منه إذن، أم أنّه قد التهم مـــن يريد ومن الحكمة أن تبتعد عنه؟ سيل الهاربين قطع تفكيرها، وأرغمها على الهروب، والتقهقر سريعاً حيث الشارع، داست في طريق هربها بعض الأجساد التي خمنّت أنها أجساد حالت بينها وبين أن تصلها شظايا الانفجار القاتلة ، تجاوزت

كذلك نباتات الزينة التي غدت ضحية من ضحايا التفجير، بعض من النباتات كانت ملطّخة بدماء الجرحى وساقطة بين أشلاء قد تناثرت هنا وهناك.

فناء الفندق تحوّل في لحظة إلى ساحة إسعافات أولية، تعجّ برجال الشرطة والانقاذ، تكوّر الناجون من التفجيرات لا سيما الأجانب في زاوية كما الدجاج الخائف، وقفت مشتتة لا تلوي على شيء، تستشعر برودة الموت الذي مرّ بالقرب منها تسكن في عظامها، كان صوت بكاء صديقتها (شيراز سكيو) يكاد يصمّ أذنيها اللتين بالكاد عادت تسمع بهما، شعرت برغبة في التقيؤ، وكادت تستنزل اللعنات على شيراز التي صممت بانفعال هستيري على أن تعود إلى الداخل لتبحث عن حقيبته يدها، وكأنّها الضحية الوحيدة في المكان، وتمنّت بعمق أن يصدفها الموت في الداخل، فيبتلعها، فلا تعود تسمع صوت بكائها الكريه، حاولت أن تقرّع نفسها على مشاعرها المخجلة تجاه صديقتها الفرنسية، لكن الفوضى التي ضجّت في نفسها جعلتها تجلس على أقرب سور، وتتقيء بقرف، فقد ضاقت نفسها بالإرهاب والموت أيّاً كان شكله، وبغض النظر عن أسبابه، لا سيما إذا تمختر بصفاقة فوق أجساد المستضعفين والآمنين.

المقاتل

"إلى العميد بشير نافع الذي كان يحلم بأن يموت في ساحة المعركة لا في اغتيال جبان"

يؤمن بأنّ الجهاد المقدس هو قدره، هكذا الرجال، كلّ له قدره، وقدره أن يفني العمر لأجل قضيته التي ملأت عليه نفسه، منذ أن شّب عن الطوق وهو ينذر النفس لفلسطين، الطريق كانت طويلة، وفي الطريق الطويلة يضحّي الإنسان بالكثير، وقد ضحّى براحته وشبابه لأجل مهمته التي وكلّ نفسه بها.

أمضى أكثر من عشر سنوات في سجون العدو الصهيوني، هناك ذاق من العذاب أصنافاً، ولكن العذاب الأكبر كان في ابتعاده عن ساحات القتال، وإن كان سجنه على أرض وطنه عزاؤه في كربه!

أشرف مراراً على الموت على أيدي سجّانيه، لكن جذوة الحياة فيه لم تنطفىء، وخرج من سجنه ليشهد حقبة جديدة وصعبة في نضال الشعب الفلسطيني ، لقد نال الشعب الفلسطيني حكماً ذاتياً مشوباً بكثير من المشاكل والمآزق في بعض أراضي فلسطين . وكان أمر

تشكيل حكومة في تلك المناطق تحدياً كبيراً. وهاهو الآن يقــوم بواجبه نحو وطنه قائداً للاستخبارات العسكرية في الــضفة الغربيــة، يسانده في ذلك الكثير من رفاق الجهاد، ورموز الثورة.

العمل كان يستوجب الكثير من السفر والتنّقل والسرية، ومهمة خاصة استوجبتْ أن يمّر بعمان لعدة أيام. هذا المساء كان عليه أن يحلّ آخر القضايا المعلّقة لكي يعود إلى مباشرة عمله فــي الــضفة، إلا أنّ طارئ لم يحّدث حتى نفسه به كي لا ينتهك سريته جعله يغيــر مــسير رحلته، ويعرّج على فندق (جراند حياة عمان)، كان من المفترض وَفْقَ خطة عمله الجديدة والمفاجئة أن ينهي مهمته في دقائق، ويغادر المكان الذي يعيش حالة انسجام هادئة، فهناك زبائن في المكان مــن جاليــات مختلفة، بأزياء متعددة، وسحنٍ شتى، ولغات متعّددة، الكلّ يقضي فــي المكان مساء استجمام، يشربونَ ما لذّ وطاب، ويديرون أحاديث ســمر دون أصوات رصاص، أو مداهمات جــيش الاحــتلال الــصهيوني، أو تهديدات المستوطنين والمتطرفين اليهود، تمنّى من كلّ قلبــه أن يــنعم وطنه في القريب بمثل هذا الأمن الذي تنعم فيــه عمــان، تخيّــل درب القتال الطويل قد تمخّض عن هناء وطمأنينــة تغمــر وجــوه الأطفــال والنساء والكهول في وطنه.

كان العميد بشير غارقاً في أمنياته المحاطة بالأشواك، يحّــرض النفس على إنجاز المهمة سريعاً ومغادرة المكان، الذي تمخّــض فــي لحظات عن موت أحمر واجهه أكثر من مرة، لكّنه الآن بطعم حقير،

ورائحة منتنة، موت جبان يتسلّل كاللصوص إلى المكان، يفتك بالعزّل والضيوف دون أن يعرّف بنفسه، إنما يتدّثر بدثار الإسلام البريء منه ومن إثمه، كان دوي الانفجار هو أوّل ما أصّم أذني بشير نافع، كان يعرف هذا الصوت جيداً، فقد ألفه في الضفة، ظن الكثيرون أنّه تماس كهربائي أو انفجار أنابيب غاز، ولكنّه كان يعلم جيداً أنه صوت عبوات متفجرة، لكن علمه ما كان ليسعفه في الهرب، ففي أجزاء من الثانية اجتاحت عشرات الشظايا جسده الذي صمد طويلاً أمام تعذيب العدو، وما استطاع أن يصمد أمام الإرهاب.

عيناه أدارتا نظرة وداع صادفتْ وجوه مرافقيه: جهاد فتوح وعبد علون ومصعب أبو خرما، أغلق عينيه المثقلتين بالجراح القاتلة، مر فّي ذهنه شريط من الأحزان والآلام، وانفتح أمامه نفقٌ من النور يضجّ بالشهداء الذين عرفهم في درب حياته، اجتاحه دفء نوراني سرعان ما استسلم له.

لم يعش بشير ليرى وطنه يرفل في الأمن والسعادة، كان آخر عهده بالدنيا نظرات الخوف التي رأها في أعين الآمنين الذين روعهم جبانٌ في لحظة صفاء في الفندق الذي عرج عليه.

لكن الموت سمح له تقديراً لنضاله الطويل بأن يأخذ نفساً عميقاً من أريج بلاده قبل أنْ يُدفن في رام الله بحضور الكثير من رِفاق دربه، بعد أن كان يختال بأعلام فلسطين التي كُفّن بها.

استلقى بشير في قبره، وفي نفسه غصّة من الإرهاب الذي لا

يعرف النور، والقتال وجهاً لوجه، بـــل يختبـــئ فـــي الظـــلام، ويقنص لحظات السهو ليفرغ سمّه في لبن الآمنين، تمنّى لو أنّ له كرة أخرى في الحياة يكرّسها لقتال الجبناء الذين يعيـــشون فـــي الـــشقوق الأرضية، ويسمنون بالحقد، لكن أنّى للموت أن يفرّط في غنائمه؟!.

القصيدة

"إلى نتالي التي باتت تخشى أن تحفظ أيّ قصيدة".

اعتادت نتالي ذات العقد الواحد على أن تنثر كنانة يومها الدراسي على مكتبها الواقع بالقرب من نافذة غرفتها، من مكانها ذاك تستطيع أن تراقب أسراب الحمام تحلّق في زرقة سماء المدينة، كما تستطيع منه أن تراقب كلب الجيران، وتستطيع كذلك أن تسمح لنفسها بالتلصّص على عشّ العصافير الذي يقبع على إحدى الأغصان في أعلى الشجرة التي تستطيع من مكانها أن تلمس أعلى أغصانها بأطراف أصابعها. من مكانها هذا ترى غروب الشمس، كما أنّها ترى أضواء المدينة تتلألأ بضوء يحاكي جمال القمر الذي يتربّع هذه الليلة في سماء صافية تزخر بنجومٍ لامعةٍ.

عليها أن تحفظ قصيدة جميلة ، تعلّمتها اليوم في حصة اللغة العربية، تقرأها مرةً تلو الأخرى لعلّها تحفظها، تحاول أن تربط معانيها ببعض أقوال وتعليقات زميلاتها في الصف، وتلفي نفسها تحفظ

بعض أجزاء منها، تلقي من وقت إلى آخر نظرة علـــى مـــرآب العمارة لعلّ أمها تكون هي سائقة السيارة التي تسمع صوت محرّكهـــا، فقد اعتادت على أن تقرأ على مسمع أمها ما تحفظ من قصائد.

ندى أبو عوف كانت كذلك تحرص على أن تنتهي مـــن عملهـــا الذي أجبرها على الخروج من البيت هذا المساء لتطمئن علـــى بناتهـــا الثلاث، وكي تتأكّد من حفظ نتالي للقصيدة، كانت تراقب حركة السيارة التي أمامها كي يأتي دورها، وتملأ خزان وقود سيارتها بحاجتـــه مـــن الوقود، وتقفل عائدة إلى بيتها عندما سمعت صوت الانفجـــار الرهيـــب الذي هزّ فندق (ديز إن) في الرابية، صورة نتالي الجالسة إلـــى نافـــذة غرفتها هي أول صورة تداعت إلى ذهنها، تخيّلت وجهها الجميل وقـــد مزقت شظايا الزجاج جماله، تخيلت كتاب اللغة العربية وقد غرق في دم ابنتها.

صرخت ندى دون وعي: "بناتي" وقادت السيارة بسرعة جنونية عائدة إلى بيتها، مرت من أمام الفنـــدق الـــذي كـــان يعّـــج بـــسيارات الإسعاف، دم الضحايا كان متناثراً على الأرض، وبعض الجثـــث ملقـــاة على قارعة الطريق، استطاعت أن تتبيّن ضـــحية ملقـــاة علـــى الأرض بملامح آسيويّة، وضّج في أذنها عويل أمّه عندما تعلم بموتـــه، كـــان الخراب واضحاً أمام الفندق، وتساءلت أيّ حادث سبب مثل هذا الدمار؟

ولم تتخيّل أبداً إرهابياً غاشماً يتسلّل إلى مطعم الفندق،

ويجلس إلى طاولة رقم ١٠، يطلب كأساً من عصير البرتقال، ثم ينتقل إلى طاولة رقم ١١، ينتصب على قدميه محاولاً أن يفّجر الحزام الناسف الذي يحيط بجسده، وعندما يفشل بذلك يتوجّه راكظاً إلى خارج الفندق، وهناك ينجح بتفجير نفسه، ويوقع عشرات الجرحى والقتلى، ويدمّر الواجهة الزجاجية كاملة.

بصعوبة وصلت ندى أبو عوف إلى بيتها، ودلفت إلى شقتها بقلق خرافي، كانت ترى حياتها كلّها قد تلاشت وتحطّمت إلى أن أسرعت بناتها الثلاث إلى الارتماء في حضنها باكيات مرتجفات يقبّلنها بطريقة هستيرية، عندها شعرت بأنّ قوة عظيمة قد أنقذت بناتها من شرْ محتم، انخرطت ندى في بكاء هستيري، وتساءلت في نفسها عن مصير أولئك العاملين اللطيفين الذين كانوا يقابلونها بابتسامة رقيقة كلما ذهبت هي وبناتها لتناول مرطب أو بوظة في مطعم فندق(ديز إن).

عرفت ندى تفاصيل الحادث الإرهاب الشنيع الذي وقع في فنادق عمان من التلفاز، وهي تحيط بناتها الثلاث بذارعيها، وتضمهنّ إلى صدرها، وكأنّها تخشى أن يطولهن الإرهاب بيده السوداء، ودعت الله أن يكون في عون أهالي الشهداء والجرحى، وأن يكون كذلك في عون ابنتها نتالي التي أصيبت بذعرٍ شديد ليلة الحادث، وما انفكت تستيقظ ليلاً باكية صارخة: "بابا، ماما، أين أنتما؟" فتندسّ في فراش والديها، كما ترسّخ في وجدانها أنّ حفظ أيّ قصيدة سيلازمه

تفجير ودماء وموت، لذا فقد باتت تخــشى حفــظ أيّ قــصيدة، وتنخرط في بكاء مرير إذا ما أُجبرت على ترديد أبيات من أيّ قصيدة، لقد ظنّت أنّ الموت ينبع من كلمات القــصيدة، ولــم تــسعفها بــراءة طفولتها لتعرف أنّ الموت يأتي فقط على أيدي المجرمينُ سُود القلوب.

التذكار

"إلى الطفل عمّار الكيلاني الذي يحتفظ بشظية في رأسه تذكاراً إجبارياً من الإرهاب حتى آخر لحظةٍ في حياته"

اعتاد كلّما خاف أو احتاج إلى شيء أو ضايقه أيّ طفلٍ من أطفال الأقارب والأصدقاء على أن يهرع إلى والده عبد الرحمن، فهو يعتقد أنّه أقوى رجل في الدنيا؛لأنّه طبيب قادر على شفاء أيّ مرض، هذا هو ما يعتقده ،ويجزم به، بل ويكرّره مراراً وتكراراً على مسامع الأصدقاء مفاخراً بأبيه الرجل الخارق. يرى في قسمات والده حزماً يخشاه إنْ غضب، لكنّه يعلم بحدسه الطفولي أنّ وراءه حبّاً وعطفاً عليه لا يعرفا حداً، فوالده الحازم الجادّ يغدو أمامه عالماً من الحبّ والعطاء، وهو بنظراته البريئة، وأسئلته الفضولية، ومشاكسته العذبةُ يجيد استدرار حبّ أبيه وعطفه.

واليوم قد أفلح من جديد في إقناع والده بأن يسبقه إلى حفل زفاف أشرف ونادية، إلى حين يلحق أبوه به، لينضّم إلى المحتفلين مع عائلته، فقد كان فرحاً بثيابه الجديدة وبحذائه المميّز، وتمنّى من كلّ

قلبه لو أنّه يستطيع أن يحصل علـــى دقيقتـــين مـــن اهتمـــام المحتفلين ليعرض عليهم ثيابه الجديدة وحذاءه المميز، كعادتـــه كلّمـــا اشترى شيئاً جديداً، إذ سرعان ما يعرضه على أصدقائه الصغار وعلى أفراد أسرته، وأحياناً على جارات أمّه.

لكن انشغال المحتفلين بمتابعة زفّة أشرف ونـاديـــة قـــد جعلـــه يتنازل عن أمنيته، وينظّم طواعية إلى المتابعين للزفـــة عبـــر أجهـــزة التلفاز المشّبتة على جدران قاعة الزفاف.

لم تكن عنده خبرةٌ كبيرةٌ في مراسم الزفّاف، فهو لا زال طفـــلاً غرّاً، لكنّه حدس بفطرته أنّه يتابع أحداثاً سعيدة تستحق الاهتمام، كمـــا تستحق ملابسه الجديدة التي اشتراها حديثاً، لكن هذا الانفجار الرهيـــب الذي حدّث على حين غرّة أربك خبراته المتواضعة التي ما عرفتْ خوفاً كهذا الذي داهمه في تلك اللحظة التي تحوّلت إلى موت ودماء وأشـــلاء وألم غريب في جمجمته.

دخل عمّار في غيبوبة جرّاء شظية استقرّت في جمجمته، ولم يعلم أنّه فرداً وحيداً في مستشفى يعجّ بالموتى والجرحى، إلاّ عندما استيقظ من غيبوبته بعد أيام، ليجد والده يبكي مصابه أحرّ البكاء، بعـــد أن وجده بعد رحلة طويلة من البحث عنه في مستشفيات العاصمة، بعد أن علق هو وأسرته في زحام العاصمة ، ولـــم يـــتمكن مـــن حـــضور الزفاف، وبذلك نجا وعائلته من الموت المحقّق، إلاّ أن صـــغيره عمّـــار الذي واجه الإرهاب وحده دون أن يعلم أنّ هناك بشراً بقلوب سوداء

يحترفون الموت، ولا يقفــون إجــلالاً لطهــارة الطفولــة، ولا لسعادتها بالملابس الجديدة.

لقد استيقظ عمّار وهو يحمل صوراً كابوسية غير مفسّرة عــن لحظاته الأخيرة في حفل الزفاف، ويحمل تذكاراً حديدياً بارداً في رأســه من شظية، قال الأطباء إنّ إزالتها شيء مــستحيل، وعلــى عمّــار أن يتعايش مع وجودها، وأن يتغّلب على ألمها، كما عليه أن يتغّلب علــى ذاكرته المشوشة إثر إصابته، ويحاول أن يتذكّر ماضيه الــصغير، وإن كان يفشل بذلك في الوقت الحالي، بل يفشل في تذكّر اسم والــده، وإن كان ما يزال يشعر بأنّه أقوى رجلٍ في العالم، ولكن لسبب يجهلــه لــم يستطع أن يحميه من ذلك الألم الذي ألمّ به.

في نفسه آلاف الأسئلة، لكنّه يفشل في أن يصوغها في كلمات، فيبثها نظرات حائرة ممتنة لكلّ يد حنونة تمتّد لتخفّف مصابه، ولــتلعن الإرهاب الذي لم يرحم عمّار أو يشفق على طفولته التي تتكــوّم فــي حضن والده الأقوى في عينه. نظراته سرعان ما تتحّول دون قصد إلى نظرات رجاء بالانتقام له من مجرمين قساة لا يعرف عنهم سوى أنّهــم يكرهون الأطفال، ولا يبتهجون لملابسهم الجديدة، ويستخفّون بسعادتهم وحياتهم.

الطيف

"إلى هيثم الذي ما زال طيفه يحوم ويحوم"

عمله يفرض عليه أن يتقن كلّ طقوس الإسعاد والتجميل والتزيين، فهو منظّم حفلات أعراس في فندق (حياة عمان)، تعلّم بالخبرة الطويلة عبر عشراتٍ من الأعراس التي أعدّ حفلاتها ونظّم فعاليتها أنّ من يبحث عن الجمال تمتلئ نفسه جمالاً، ويغدو إسعاد الناس من أهم مباهج ذاته، وسمات سلوكه.

تعلّم أنّ البشر جميعاً يتشابهون في البحث عن السعادة، ويختلفون في تفاصيل تلك السعادة. وهو يتحلّى بالصبر الذي يجعله يستمع طويلاً دون تبرم إلى طلبات وآمال العروسين، ثم ينفّذها بدقة، ليجعل كلّ عرس يشرف على تنظيمه صورة طبق الأصل عن أحلام العروسين. لا يعرف راحةً أو رضىً عن ما عمل إلا إذا رأى السعادة في عيون العروسين.

كلّ عرس ينّظمه يحفزّ الأحلام والأمنيات في نفسه، ويدعوه لحّث الساعات والأيام لتمضي سريعاً، فيعود أخوه من الولايات

المتحدة الأمريكية، ليتممّ زواجه بحضوره، فسعادته لا تكتمل إلاّ بحضور شقيقه الحبيب.

أمّه تدعوه حبيبها الصغير، والأصدقاء يعتقدون أنّه بسنينه الأربع والعشرين لا يزال صغيراً على الزواج، وعلى تحمّل مسؤولية البيت والأسرة، ولكنّه كلما أعدّ حفل زفاف جاشت في نفسه الأمنيات، وأيقن كم يتوق إلى أنّ يكون عريساً لا معدّ حفل زواج وحسب!!

في ذهنه تفاصيل مدهشة يدّخرها لزواجه، سوف يكون عرسه ليلة من ليالي ألف وليلة، سوف يستثمر كلّ موهبته ليجعل من هذه الليلة ليلة لا تنسى، كثيراً ما حدّث أمّه بتفاصيل الليلة المشتهاة، فتبتسم له مؤمّلة النفس بالسعادة والهناء.

كان هيثم يطوف كعادته في الفندق، يعطي التعليمات لكلّ من له علاقة بالتحضير للزفاف الذي يعدّ له، كان يراجع على ورقة صغيرة كلّ بنود الحفل التي استكمل آخرها قبل دقائق ،فوجد نفسه قد استكملها تنفيذاً، فكّر بأن يغادر المكان، ويقفل راجعاً إلى البيت، فغداً عنده يوم عمل طويل، لكنّ موتاً مباغتاً قطع تفكيره، ففي لحظة غدا المكان حطاماً يحاصر جثث القتلى والجرحى الذين وقعوا فرائس في يدي إرهابي غاشم قررّ في لحظة جنون أن ينهي حياته وحياة مئات من الأبرياء الذين لا جرم لهم إلاّ أنّهم يحترفون الحياة والأمل.

لأوّل مرّة لا يشارك هيثم في التحضير لفعاليات حفل أو جمع،

فقد كان جثة هامدة قد غادرتها الروح كما غادرتهـــا الأحـــلام والاستعداد لزفافه القريب. غُيّب هيثم في قبره في مقبرة ســـحاب دون أن تراه أمّه عريساً في حفل زفاف استثنائي، ودون أن يحـــضر أخـــوه الذي يحبّه من الولايات الأمريكية المتحدة، لكـــنّ طيفـــه ذا القـــسمات النورانية المشبعة بروح الشباب وهسيس الأمنيات لا يزال يحوم ويحوم في قاعة أفراح الفندق ينتظر بشغف حفل زفافه الذي لن يكـــون أبـــداً، فطيفه لا يدري أنّ صاحبه قد غدا ميتاً، وأنّه لن يكون أبداً عريساً فـــي حفل زفاف.

الباحث عن الشمس

"إلى حسين الجبوري الذي جاء إلى الأردن باحثاً عن الشمس ..."

سمع كثيراً عن الأمن، وتمنّاه من كلّ قلبه الذي ما فتئ يشرئب إلى نور الشمس التي تتوارى وراء التفجيرات والقصف كي لا تعاين الموت والقتل والذبح. فمنذ أن يفع وهو لا يعرف عن دورة الحياة إلاّ الموت والغياب، في عمره القصير عرف حربين طاحنتين لاكتا مقدّرات شعبه العراقي، ونهبتا خيرات وطنه، عرف لعشر سنوات الحرب مع إيران، ثم ذاق مجبراً وشعبه مرارة الحصار الذي تمخّض عنه احتلال أمريكي لئيم، عاث فساداً في أرض العراق، وحطّم بهمجية بربرية حضارتها المرسومة بخطوط أسطورية على وهج الشمس التي تمنّى أن تبزغ ولو لمرّة واحدة، وتشمل كلّ عراقي بالأمن والسلام والطمأنينة.

اعتاد منذ أن كان صغيراً، بل عوّدته الحرب على أن يرى الشمس متوارية قسراً خلف سحبٍ من الدخان والغبار إثر القصف

والتفجيرات، وحفظ كثيـر مـن أسـماء الأقـارب والجيـران والأصدقاء والأحبّة الذين قضوا في الحربين وفـي الحـصار، وغـدوا جميعاً صوراً ،لا شيء غير صور حزينة تتخزّن في ذاكرتـه الحزينـة. وظنّ يائساً أنّ الموت والحرب قدر كلّ عراقي، فهكذا هي حـضارة مـا بين النهرين حضارة جبّارة ،وشعب ماجد، وقدر قاسٍ يُتصدّى له بكـلّ بطولة.

ولكنّه على الرغم من كلّ شيء يحلم بالشمس، يحلـم بـصباح مشمس وسماءٍ صافية، وأسرابٍ من الحمام تتهادى في سمائه ،وتحمل رسالة سلام وأغصان زيتون، أليس من حقه كـأيّ إنـسان أن يعـيش الطمأنينة والسعادة في وطنه؟ أليس من حقّ العراق أن تزهر ياسمنياً؟ أليس من حقّ طيورها المهاجرة أن تتعمّد في نهريها، وتتفيّأ نخيلهـا، وتعانق ترابها، وتغازل حور نسائها؟ أليس من حقه أن يـستيقظ علـى فرحة انتظرها منذ أن كان طفلاً؟

مثل طائر صيفي تهاجمه سحابة شتاء قارس طار من العـراق، وحطّ في عمان يحلم بالأمن، كانت الشمس أوّل ما وجـد فـي عمـان، وأعزّ ما طلب أن يجد، فقد كانت طِلْبَته، حدّق طويلاً في قرص الشمس، وهزّه طرباً الأمن والاستقرار اللذان يسودان في المكان، وطفق يـزور كلّ شبرٍ من العاصمة بسعادة طفلٍ يتمتع بهبة الـسلام، دون أنّ يـشعر بأنّ عيوناً حاقدة تترصّد حركاته وسكاناته.

زار المطاعم والأسواق والمتاحف، وسار طويلاً فـي الحـدائق وفي المتنزهات الوطنية، واستمتع أشد المتعة بالاستلقاء في سـريره،

وبإغماض جفينه لينسرب في نومٍ يعلم تماماً أن لا قــصفاً أو موتــاً أو مداهمة محتملة قد تفزعه.

كان يوماً طويلاً قضاه في إنجاز أعمالٍ معلّقــة، بــدّل ملابــسه سريعاً بعد أن تناول عشاءه في مطعم الفندق الذي ينزل فيه على عجلٍ، واستلقى في سريره ليستسلم للنوم الذي يظنه قيد أُنْمِلــه منــه، وكــاد ينزلقُ في نشوة النوم، لكن انفجاراً مريعاً انقضّ على المكان، وســرق نومه، وبعثره مع ما بعثر من أثاث غرفته التي تهاوى بعــضها عليــه، وسحق عظم فخذيه ويديه، سمع بكائية عظامه المتكّسرة، وتفتّق جسده عن صراخٍ رهيب يحمل آهاته وأنينه، قدّر أنّ المكان قد تعرّض لانفجار أسطوانة غاز في المطبخ، وإن كانت أُذناه قد أسرّتا له بأنّ ما سمع هو صوت انفجار بعبوات ناسفة لا انفجار غاز، لكنّه صمّم على أن يكــذّب حدس أذنيه، فهو جاء إلى عمان هارباً من الانفجارات والموت، باحثــاً عن الشمس.

عندما استيقظ في اليوم التالي من إغماء صــدمة الألــم كــان حبيساً في غابة من الجبص الذي يحاصر فخذيه ويديه، أدرك أنّه كــان ضحية لاعتداء إرهابي على الفندق الذي كان ينزل فيــه، الكثيــر مــن الأردنيين الذي كان يقابلهم لأول مرة في حياتــه كــانوا قــد حــضروا لزيارته شأنه شأن أيّ أردني زارته وفود الأردنيين التي هبّت تواســي الجرحى وتعزّي ذوي الضحايا. شعر بخوفٍ يداهمه وهــو يتخيــل يــد الإرهاب طويلة تمتدّ،فتطول كلّ الأبرياء، وتقصف زهورأعمارهم، نظر

إلى السماء من نافذة غرفته حيث يرقد على ســـرير الـــشفاء، كانت السماء صافية، والشمس مشرقة زاهية لا تحجبها أيّ يد إرهابية، بل تعمي بوهجها كلّ عين تنظر بسوء إلى أيّ مواطن آمن في وطنـــه، شعر باطمئنان وهو في عين الشمس، واستسلم للنوم.

وتمضي الأحزان

"إلى هبة غزالة وشكري عازر اللذين تحديا الموت ،ولبسا ثياب الفرح"

هذا اليوم يشبه بسعادته وبثياب فرحته وباجتماع الأحبة يوم زفاف نادية وأشرف الذي خضّبه الدم قبل ثمانٍ وأربعين ساعة، في فندق قريب كانت نادية في مثل هذه الساعة تتأبّط ذراع أشرف ،وترفل في ثوبها الأبيض، تتهادى على طوق من الأمنيات والأحلام، وتتبادل السعادة والابتسامات مع الأحبّة والأقارب، كانت تهمس من آن إلى آخر في أذن أشرف بأجمل الوعود وأرقّ الكلمات، كانت الموسيقى والأغاني الشعبية تشجي المكان، وتستفّز الأجساد لتنخرط في فسيفسائية فرح خاصة، كانت اللحظات ملك للفرح عندما تسلّل إرهابي قد تحزّم بحزام ناسف إلى المكان، وحوّل الفرح إلى مجزرة شنيعة.

منذ الصباح الباكر طفق شكري وهبة يتصلان بالأقارب والأصدقاء ليؤكّدا أنّ موعد زفافهم سيكون في نفس الموعد المحدّد منذ

زمن، ويقولان باسمان متحديان بإصرار يكافئ سعادتهما باللحظة القادمة: "نحن لن نخاف، نحن لن نضعف، نتحدّى الموت والإرهاب، وننتظركم لبداية جديدة".

البعض أبدى خوفه من حضور أوّل زفاف أردني بعد عرس عمان الدامي، البعض الآخر أبدى امتعاضه من تجديد الأفراح والأردنيون يلبسون السواد، وكثيرٌ أبدى قلقه حول سلوك المحتفلين في حدادٍ وطني يمرّ الوطن فيه، في حين انتقد بعض المحافظين من الأقارب والأصدقاء هذا الزواج، ونصحوا بتأجيله إلى حين ظروف أفضل، لكن شكري وهبة أصرّا على أن يتزوجا في موعدهما المحدد من قبل، أبيا أن ينكسرا أمام الخوف أو الإرهاب، كان في قلبهما من قوة الحبّ والإيمان بالحياة ما يكفي لإشاعة الفرح في قلب كلّ أردني حزين، أرادا أن يمدّا فرحهما ليكون بداية فرح أردني يتحدّى كلّ معتدٍ، أرادا أن يكونا نفسيهما، فكان الزفاف في موعده.

لبستْ هبة الأبيض، وتجملّت كما تتجمّل كلّ عروس، قبّلت أمها، استسلمت لحضن الصديقات ولقبلاتهن، حملت الورد في يديها، وتأبطت ذراع شكري، استقبلتهما الزفة بأغانٍ وطنية أمام قاعة أفراح فندق (ديز إن)، اعتلت الحطّتان السوداء والحمراء كتفها وكتف شكري، تقاربت القلوب، وامتزج دم الحبّ في لحظة عشق هادئة، أحسّت هبة أنّ أرواحاً متمرّدة على الموت تسكن كلمات وموسيقى فرقة الزفة التي استعادت الكثير من مخزون أفراح الأباء والأجداد.

بسمات عليلة حطّت في المكان، وغشيت وجوه الحاضرين، خمنّت هبة بل كادت تجزم أنّ أرواح ضحايا عرس عمان الدامي قد تفلتّت من فردوسها، وهبطت على الأرض كي تشاركها أفراحها، وتستعيد معها لحظة حزن سُرقت منذ أيام، فقد كانت الأرواح لا تزال مسكونة بحمى الفرح، تلبس ملابس مزركشة موشاة بالبهجة، ازدحم المكان في عينّي هبة بضيوفها الأرواح، وزهت بضيوفها الاستثنائيين الذين وهوبها بحضورهم أجمل هدية زفاف.

مالت هبة على شكري، وكادت تهمس له بفرحتها بالأرواح التي تحضر زفافها، لكن ابتسامة مخضّبة بالدمع رأتها في عينّي شكري جعلتها تدرك تماماً أنّ شكري قد سبقها إلى الترحيب بضيوفه الأرواح.

تعالت الموسيقى، وضجّتْ الفرحة في قلوب الحاضرين، وفي وجدان الأرواح، وتغاضى الكلّ عن الدماء التي أعيت العاملين في الفندق تنظيفاً، فبقيت شاهدةً على جدران الفندق وعلى أرضيته، تروي حكاية شهداء اغتالهم الإرهاب دون أدنى حق.

انتهت الزفة، ودلف العروسان إلى قاعة الاحتفال، بعد أن وقفا لحظة على بوابة القاعة، وأدارا ابتسامة في المكان، طافت على كلّ الوجوه، وزرعا ابتسامة على خدود الحاضرين، ومسّدت بلطف على رؤوس الأطفال المبتهجين، كانت ابتسامة اختزلت كلّ معاني التآزر والتلاحم والقوة، وقالت بتحدٍ هاقد اجتزنا اللحظة، وقفزنا عن الألم

الذي شُلّ في عرس أشرف ونادية في لحظة الدلوف إلى قاعة الزفاف، دون أن يتسلل غادر إلى القاعة ،ويفجّر نفسه، ودون أن تتطاير الأجساد والزهور، وتسقط أرضاً.

جلست هبة على كرسي الحفل المخصّص لهما كملكة متوّجة، شدّت بيدها على يد شكري، إذ كانا منتصرين في لحظة حزنٍ وطني، وسدرا في طقوس فرح دامت إلى الصباح، الذي استقبلاه بدعوة جديدة إلى الحياة والتفاؤل، إذ إنّ الأحزان تمضي، ويبقى الأمل...

ويبقى الأمل.....

عنوان المؤلفة
الأردن – عمان – ١١٩٤٢
ص.ب ١٣١٨٦

البريد الالكتروني :
Selenapollo@hotmail.com

رقم الإيداع بدار الكتب
القطرية: ٢٠٠٦/٥٩٤
الرقم الدولي(ردمك): ١-٠١-٤٣-٩٩٩٢١